

الحداد

يوسف القعيد

الحداد

يوسف القعيد

الفهرس

الحداد

لا..

لن تدفنوه أبدًا.

لن يوارى في التراب حتى نأخذ بثأره أولاً.

* * *

وتقولون إن سترة الميت دفنه. إنه لم يمت. لقد قتل. من الذين قتلوه؟ لا أدري، ولا حتى حسن الأعرج الذي كان معه في الحقل في تلك الليلة السوداء. ولا حتى مأمور مركز إيتاي البارود يعرف من قتله. قتل الحاج منصور أبو الليل وراح يحمل سره معه. صمت إلى الأبد، لا يوجد منه سوى جسد تفوح منه رائحة معه، صمت إلى الأبد. لا يوجد منه سوى جسد تفوح منه رائحة نتنة. وعينين لم تغمضا ساعة موته فبقيتا تحدقان في سماء بلا نجوم. مسكين يا منصور أبو الليل. أنت نائم الآن على الساقية. الريح تصفر حولك، والغفير المعين لحراستك يقف بعيدًا عنك يرفع صوته كي يقتل خوفه. كي يوهم نفسه بأنه لا يخاف. لا أحد يحنو عليك أو يقترب منك. سوى شجرة الصفصاف. فهي الآن واقفة إلى جوارك لم تفزع ولم تخف. ما زالت تظللك وتبكيك.

* * *

ـ وكل من عليها فان، ولا يبقى إلا وجه ربــك ذو الجلال والإكرام، يا عباد الله توفي اليوم.

* * *

ـ رايحة فين يا بت يا عيشة؟

صوت شيخ الغفر، جبناء الأمس غدوا أبطال اليــوم فكيف حدث هذا؟

ـ ذاهبة إلى والدي.

ـ ممنوع.

ـ م إيه؟

ـ ممنوووع، أنا با تكلم عربي.

وتلك بداية الإهانات يا أبي. رفعت الديدان رؤوســها من وسط الطين. لن أضعف أمام أي منهم. لن أتوسل إليك، أنا ابنتك أنت، ابنة الحاج منصور أبو الليل رجــل ولا كــل الرجال، كل هؤلاء لم يكونوا شيئًا بالنسبة لك. كان رضــاك عنهم أمنية كل منهم، كلهم ديدان صغيرة. لم أعــرف هــذه الحقيقة إلا بعد أن قتلوك.

* * *

ـ توفي اليوم إلى رحمة الله تعالى.

ـ تعرفي أنا سميتك عيشة ليه؟

كنت صغيرة، كان الليل يسقط على قريتنا كرداء سميك.

ـ وأنا إيش عرفني؟ يمكن علشان أتولدت في موسم البلح.

ضحك، كيف قتل؟ كيف انتهت حياته في لحظة قصيرة؟ فيها سبب أهم من كدا، وأنا صغير حبيت واحدة اسمها عيشة.

هل كنت تحب يا أبي؟ أنت رجل صارم تضحك قليلاً، بصفة نادرة الحدوث إذا كنت بين الناس، في المنزل لم تكن تضحك إلا معي، حتى حامد أخي الأكبر لم تبتسم في وجهه، فيم العجب، خلف هذه الملامح الجامدة وهذا الصدر القوي، قلب ينبض، في كل الصدور قلوب، قد يكون ما تنبض به حبًا أو كراهية، ولكنها قلوب على أية حال، باقي الحكاية معروف، البنت ما كا نتش من بلدنا. عايز أتجوزها يا با. قال لأ. كانت هيه الكلمة. ما قدرتش أرد عليه. تاني يوم ما لقتش عيشة ولا حد من أهلها.. ما ذنبهم هم؟ قال في

مرارة. وما ذنبي أنا؟ واغتيـــال الأمنيـــات الصـــغيرة ووأد أحلامنا البكر يفقد الحياة معناها. فما قيمة كل شيء؟!.

* * *

لا

لا تدفنوه أبدًا

لن يوارى في التراب حتى نأخذ ثأره أولاً.

* * *

كانت الشمس تميل ناحية الغروب، بـــدت كقـــرص أحمر قان، والنبي يا با الحاج، اقترب القرص الأحمر مـــن السقوط في مياه الترعة، عايز إيه يا أحمد؟ يوم يموت بعـــد قليل، يسقط الظلام فيلف كل شيء.

أصل شيخ الغفر طالع معاش الشهر الجاي، ضـــحك أبي: يعني عايز إيه؟ ضحك أحمد ضحكة صفراء، ما أنـــت عارف يا با الحاج، تكلم العمدة أنا برضه أنفع شيخ غفر. لم ترد عليه. غطس قرص الشمس في مياه الترعة. انهال على يديك تقبيلاً في حب وإخلاص مزيفين. لم تلاحظه ســـاعة أن مشى من أمامك، ظلال البيوت الباهتة قـــد اســـتطالت. بـــدا البخار الأبيض يخرج مع الكلمات من الأفواه المسكينة، رفع

يده بزهو الطاووس، أعاد وضع الطاقية على رأسه، ما إن انتهى من حارتنا حتى ضرب الأرض بقدميه. سار في طريقه، هبط المساء، لف قريتنا بغلالة رمادية حزينة، كم أحبك يا أبي، كم أحب وجهك الأسمر وجبهتك العريضة وصدرك المزروع بشعر أسود أكثر غزارة من النجيل الأخضر على شط الترعة التي تغذي ساقيتنا بالمياه. كم أحب الأسد الذي رسموه على صدرك العريض، كم أنت قوي، فارع الطول، عينان صغيرتان مدببتان، ذراع عملاقة كتب عليها بمداد أخضر منصور أبو الليل من أعيان الضهرية، مركز إيتاي البارود، مديرية البحيرة.

* * *

يا خالة الحاجة طمان، يا أهل الدار، لحظات الميلاد، ذرات الضوء تتساقط، كتل الظلام قد ولت هاربة، أسلاك الشمس الصفراء تتسلل في حقل ريفي، صوت حسن الأعرج، لم يكن قد استيقظ أحد في الحارة بعد، منزل واحد يفتح ساعة الفجر ليخرج الشيخ مسعود إلى الجامع. وهو في آخر الحارة من الداخل، المنزل المقابل لمنزلنا هو منزل سكينة، لا تصحو من النوم إلا في العاشرة صباحًا. ثالث

منزل هو منزلنا، الحارة مسدودة، منزلنا بابه يفتح مـــع أول ذرة ضوء بعد ليل أسود صامت. الحـــارة ضـــيقة، عنـــدما تدخلها تفاجأ في آخرها بمنزل الشيخ مسعود كسد أبدي، عند أول الحارة توجد مصطبة صنعت لوالدي، ما إن يأتي الجزء الأخير من النهار حتى تفرش حصيرة على هذه المصـــطبة، فوق الحصيرة فروة آخر خروف ذبح في عيـــد الأضـــحى، بجوار المصطبة قلة يشعرك منظرها الخارجي بـــأن الميـــاه بداخلها باردة. تمتد جلسته حتى آخر الليل. آخر الليل عنـــدنا يأتي بعد سقوط الظلام علينا كالقدر بوقت قليل. يـــا خـــالتي الحاجة طمان يا ست عيشة. على الرغم من أنك تعـــد أحـــد أفراد عائلتنا، لم تنادي هكذا من الخارج؟ ولم حضرت فـــي هذا الوقت؟ لست غريبًا عنا، كلنا غرباء، عايز إيه يا حسن؟ أدخل، حتى صوته بدا غريبًا، لا مش داخل، تعالي يا خالتي، كان يلهث، على وجهه حبات عرق علـــى الـــرغم مـــن أن نسمات الصباح الباردة كانت تهـــب علينـــا، أبويـــا الحـــاج منصور، بدا حسن ضئيلاً لحد الضياع. عايز الفطار؟ لا يـــا جماعة أصله مات امبارح. مات؟ الموت هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة. قصدي النهاردة الصبح بدري توفي إلى رحمـــة الله

تعالى. مات، قصدي انقتل، الحاج منصور أبو الليل، انقتل؟!. بعد ما انقتل مات على طول، يقصد أنه قتل، أي مات، بعد أن مات قتل، المهم أنه مات.

* * *

مساء الخير يا ست عيشة، شيء لله يا أهل الله، كنت ذاهبة إلى مسجد سيدي تاج الدين، كان الوقت ليلاً، معي حسن الأعرج، لا أعرف لم يسمونه الأعرج، قدماه في قوة الحديد، مين زهران؟ العجز سر مأساتنا، أيوه زهران، إزيك يا عيشة، ظهر على وجه حسن ضيق عاجز، قال: خير، فيه إيه يا زهران؟ أنت ما فيش حد مالي عينك في البلد؟ دي بنت الحاج منصور أبو الليل سيد البلد كلها، قال له زهران: اسكت يا ولد، إيه رأيك يا عيشة؟ لم أرد عليه. أنت لا تملك ما تقدمه لي سوى جلابية تحرص على أن تكون نظيفة في كل الأوقات، ووجه أبيض كبير، وقلب فارغ، وعقل أكثر فراغًا من القلب، وجسم في قوة الثور، تعيش على أمل غامض، أكثر غموضًا من الحياة نفسها، هذا الأمل إحدى نزوات العمر وهي كثيرة، قلت له: رأيي في إيه يا زهران؟ سألني في رقة: يعني مش عارفة؟ نفث حسن ضيقه الذي لا

يملك سواه بقوله: يا أخي روح وكل نفسك الأول، هدده زهران، لولاك ماشي مع عيشة لضربتك، لا أحبك يا زهران، لا أعرف عن الحب الذي تتحدث عنه أي شيء، أسمع عنك أنك تعمل في أمور غير مشروعة كقتل الناس، وسرقة المواشي، وحرق الزرع، شاهدتك في الأسبوع الماضي خارجًا من منزل سكينة ساعة الفجر، قال بعجز: سايباني كده يا عيشة، سأله حسن: عايز منها إيه؟ طيب روح لأبوها، وهو يرحلك من البلد، قال من أعماق العجز: عيشة، لم أرد عليه، لا أحبك يا زهران، ما أطلبه يصل إلى درجة الاستحالة، أنت لا تقدر عليه، بكل الممكنات في حياتي طلبًا للمستحيل، قال زهران، أنا بحبك يا عيشة، أنا مش عاطل، أنا مستعد أشتغل، في الأعماق جرح ينزف، الناس تقول علينا إيه يا زهران، نفدت الدماء من جراحي، هو الحب عيب يا عيشة؟ قال حسن في ثورة: أيوه عيب يا نطع، الذين يتدلون إلى أعماق اليأس القاتل يفعلون أي شيء، عيشة: أنا منتظرك ما حدش حايخدك غيري، أي حد يطلب إيدك يموت تاني يوم على طول، قالها زهران بسرعة، كسرعة طلقات البندقية التي تثبت وجوده في قريتنا، وتجبر الكثيرين على

احترامه، قالها وانطلق، عملاقًا ضخمًا، وابتلعه الظلام في جوفه وغاص فيه، قال حسن: الواد ده مش راجع إلى إذا أتربى، فيه رجولة، رأيك فيه إيه يا حسن؟. انزعج حسن من السؤال، كأن زهران غير جدير بالسؤال عنه، دا قتال قتلة، دا مش بني آدم، كنا قد وصلنا إلى المسجد سيدي تاج الدين، بسم الله الرحمن الرحيم شي لله يا أهل الله.

* * *

ــ يا حبة عيني عليك، يا أعز حبيب.

يا حبة عيني على جسمك اللي فاحت منه رائحة كريهة تهب على البلدة كلما هبت عليها الرياح ساعة الغروب، لو كان بيدي يا أعز حبيب، لغزلت لك من جسمي كفنا يسترك، لو عرفت من الذي قتلك، لذهبت إليه، ومزقته بأظافري، اطمئن يا أبي فوق الساقية، وتحت شجرة الصفصاف التي تبكي عليك في كل لحظة. تبكي دمًا أحمر تبيعه للترعة التي تجري من تحتها في لا مبالاة، تبيعها إياه بلا مقابل.

قبل خروجه إلى الحقل في تلك الليلة الحزينة، نظر إلي، كنت نائمة في حجرتي، لم يتكلم، تحرك وخلفه حسن

الأعرج والجاموسة والبقرة، لا بد وأنك كنت تعرف أنك لن تعود في هذه الليلة، لأول مرة أشعر أنك قد تقدمت في السن، تزوجت متأخرًا، لا أحب زهران، ولكن أود أن أعرف من أين يعيش هذا المجرم؟ حسن الأعرج يحبني، وإن كان لم يصرح بذلك، هذا شيء واضح في جميع تصرفاته، زهران يذهب إلى سكينة في بعض الليالي. لم أغضب منها، أشفق عليها، أن الذين يبيعون أشياءهم في أمس الحاجة إليها كي يواصلوا الحياة مساكين، لا يستحقون منا إلا الرثاء لهم، كنت قنوعًا في كل شيء، لم تنجب سوانا أنا وحامد، شيء نادر الحدوث في بلدنا لم لم تنجب آخرين يؤنسون وحشة الحياة؟ عندما عرضوا عليك عمدية البلدة، رفضت ذلك، وليت أحد أقاربك، عظمة الإنسان في هذه الدنيا تقاس بالأشياء التي يمكنه الاستغناء عنها، قلقت أمي في هذه الليلة السوداء، كان زهران يلاحقني في كل مكان، لم أخبرك بشيء، حدثت بالأمس مشادة بيني وبين سكينة، لم تكرهني هذه المرأة؟ أحتقرها، لم أظهر لها ذلك، تركتها تمارس في الخفاء ودون أن تعلم أنت كل ما كانت تحب أن تمارسه، فتحي زميل حامد حدثه بخصوصي، حامد لم يجرؤ على مفاتحتك في الأمر،

سافرا معًا إلى دمنهور، دفنت الأمل الغامض، في مقبرة سحيقة، كبرت، أنا في التاسعة عشرة من عمر، هذه المشكلة لا تشغل بالي. أحن إلى الرجل، لدرجة الوله والجنون، لقد كان من الخطأ أن لا أخبرك بكل هذه الأمور.

* * *

ــ يا حبة عيني عليك.

يا أعز حبيب.

* * *

مين اللي قتل أبويا يا حسن؟ كانت دارنا مظلمة. ذهب نورها بذهاب رجلها، في الظلام العميق لا يملك الإنسان إلا أن يغوص في أعماق ذاته. خراب يا دارنا حتى تأخذ بثأر الحاج منصور أبو الليل، لم ألمح سوى الرعب والخوف في وجهه وسط الظلام، والله ما أعرف يا ستي عيشة، قلت له: أنت مش كنت معاه في الغيط؟ لازم تعرف، ابتعد عني قليلاً، أنا كنت قدام المية، هو كان عند الساقية بيسوق الجاموسة، لا بد وأنك تعرف، وسيدي الحاج تاج الدين ما أعرف، ورحمة أبويا الحاج منصور، صحت فيه: اخرس، هل انتهى الحاج منصور أبو الليل؟ مات؟ أصبح

يمينًا يحلف به حسن، وغيره؟ لا، لم يمت، هل دفن؟ لم يدفن، لن يدفن، حتى أصل إلى السر، اسمع يا حسن لو ما قلتش ع القاتل، يبقى أنت اللي قتلته، احتمى حسـن بالصـمت، لازم تتكلم، أنا أموت أبويا الحاج منصور؟ لم يكن بالبلدة كلها من يستطيع الوقوف أمامه، كان له سلطان على كل الناس هنـا، تناهى إلى صوت حسن، نفسي أعرفه وأنا أشرب من دمـه، الحاج منصور والدي، أبو البلد كلها، أنا عايز، نفسي أعرف، مش قادر، بلدتنا بعد الحاج منصور تبدو كاليتيم.

* * *

ـ لا..

ـ لن تدفنوه أبدًا.

ـ لن يوارى في التراب حتى نأخذ بثأره أولاً.

* * *

أصبحت المصطبة كمقبرة موحشة، الحارة أضـحت كئيبة الشكل، لن أعتمد على أحد غريب، عظمة الإنسان في أن يكون وحيدًا. مبروك النجاح يا عيشة، لن يأخـذ بالثـأر سوى حامد، ولكن ممن؟ الله يبارك فيك يا با.. لا شيء لـه قيمة. قال حامد: ناويه تكملي تعليمك؟ الذين كانوا ينتظـرون

خروجك بالسعات ابتعدوا عنا. قال والدي بحدة: اخرس. أنت وحسن الأعرج اللذان تعرفان السر. تطلعت إلى وجه والدي. غضب من السؤال. لا أملك أن أقرر هذا. القرار متروك لك يا والدي، أنا قصدي. أكمل يا والدي، عيشة لازم تقعد في البيت، كفاية على كدا، لا بد من هذا السجن الأبدي وإن طال العذاب، كل شيء مكرر، سأنفذ هذا الحكم حتى يحضر العريس، خلف هذه الأبواب لا يراني أحد، قال والدي كمن يقرر أمرًا: هيه كلمة واحدة، كفاية على كدا، ارحمني من هذه الشكوك يا رب. أشك في كل الناس، حتى حسن الأعرج، أشك في نفسي أحيانًا كثيرة، عند طرح السؤال، من القاتل؟ لا أجد سوى كتل الصمت ومساحات الفراغ. استدار إلى حامد، في عينيه حيرة، رأيك إيه يا عيشة؟ بعض الناس يتحدثون عني، زملائي من الصبيان والذين أكملوا تعليمهم يتحدثون بلغات أخرى، لا أفهم منهم حرفًا واحدًا، هيه عيشة لها رأي؟ أنت مالك خرع كدا، بقى أنت راجل، رغم كل هذا أحبك، حرمتني نعمة التعليم، أحبك، قسوت علي، أحبك، لم تحاول أن تفهمني، أحبك، تركتني ذليلة، واحدة من الحريم، أحبك، والله ما حد عارف نصيبه فين، قالتها أمي، التسليم

بكل شيء يبدو سخرية، نحن لا نملك سوى هذا، لا أستطيع أن أقول لا، والحب أعجب ما تخفق به القلوب.

* * *

العمل الوحيد المشرف هو أن نثأر له، والنبي دي مصيبة، لم تتحدثين بهذا الهدوء يا أماه؟ هذا الحديث يوحي بأن الذي قتل شخص آخر غير والدي. دي أكثر من مصيبة يا أمه، المهم دلوقت ح نعمل إيه؟ قالت أمي، وإحنا نقدر نعمل أي حاجة، ألم تشمي الرائحة التي تهب على منزلنا ساعة الغروب من كل يوم؟ ألم تشعري بالريح تصفر في حارتنا الخالية من كل شيء حتى من العواطف؟ منزلنا أضحى كمنزل هجره أهله، نحن بدونه لا شيء، ألم تشمي رائحة الحزن وهو يعشش في منزلنا، لقد أفرخ الحزن فعل كل شيء. قالت والله ما نقدر دا بس كلام، صحت من أعماق اليأس، نقدر نعمل المستحيل، تعملي إيه يا عيشة؟ سكت، معذرة يا أماه، كلمات بسيطة تعلمتها أيام المدرسة، المستحيل، اليأس، أيام المدرسة أيام مجد وعز ولت ولن تعود، ليتها دامت، ليت الزمان كان قد توقف عندها ولم

يتحرك آه لو تعود يا أبي؟ يا أعز حبيب، لكن ذلــك أيضًــا مستحيل.

* * *

أبوكي ح يميل بختك. لا أحد يدرك مطالبي بالتحديد، حتى أنت لم تفهمي ما أطلبه، قصدك إيه؟ قالت أمــي فــي حزن مبطن بالخوف من المستقبل أنت فاهمة قصــدي، مــا أطلبه عسير المنال، لن أغير وجه الكــون، ولكنــه شــيء مستحيل التحقيق، ألف شخص تقدموا لك يا عيشة، هل كــان من الضروري أن نرفضهم؟ كل الذين تقدموا لي لــم أقتنــع بواحد منهم. لا أفهم مقصدك. ما قيمة أن أصل إلى الخامسة والعشرين بلا زواج، كان من المفروض أن يكون معك أولاد الآن يا عيشة، لقد كبرت، لا أرغب في الزواج الآن، أحــن إلى الرجل، ضحكة فيها رجولة تدغدغ حواسي أيامًا، هــذا المنزل لن يدوم لك يا عيشة، كل ما أطلبه أن أظــل قريبــة منه، ابتسامته أعلى ما في الوجود.

* * *

نمت الليلة نومًا متقطعًا، عندما صحوت من نــومي، كان بالحجرة شريط من الضوء الشاحب، كانت أمــي إلــى

جواري، ما هو الشيء غير الممكن، كانا يقتلانه بلا رحمة، لا شيء يا أماه، كان الرجل والمرأة يعتديان عليه، لم أدر سبب الاعتداء، رغم اليأس البادي على وجهك كنت تقاوم مقاومة الرجال. إزاي يا عيشة؟ حاولت أن أجري نحوه، كنت مربوطة بقيود غير مرئية، كتل من العجز، كميات من اليأس، أبعدتني عنه، حتى أنت لم تطلب العون، كنت باحلم، كان والدي يقاوم شخصين يعتديان عليه، بتحلمي إزاي؟ أنتي كنت بتتكلمي، امرأة ورجل، لمحت وجهه وسط الظلام والضباب، النوم سلطان يا أمي، كان الحاج منصور أبو الليل سلطان زمانه، قبل أن أنام فكرت فيك، بالقرب مني صورة كبيرة لك، وأنت في صدر الشباب، حين أغمضت عيني كانت صورتك آخر ما شاهدته، لازم فيه شيء مخبياه، الذي شاهدته فظيع، لن أقول لك شيئًا، نامي أنت، انتهى كل شيء. هجرت النوم والأحلام، نامي أنت، كل شيء على ما يرام يا أماه، من الشخص الذي كان معك؟ كان يجب أن أعرفه، ما معنى كل هذا؟ يمكنك أن تنصرفي إلى أمورك الخاصة، فكل شيء جميل، يا حبة عيني عليك يا أعز حبيب.

كان جالسًا عقب العشاء، بعض الأنوار الباهتة تفرش المكان، ما من مرة أنظر إليك حتى أحبك من جديد، حبًا فيه كل بكارة الحب الأول، هل تعرفين من الذي طلبك مني اليوم يا عيشة؟ لم أرد، قصة اعتدت سماعها كل يوم، اعتـــدت أن أسمع بعدها قراره بالرفض؟. زهران؟ خبطت أمي صــــدرها في فزع، يا ندامتي زهران؟! نظرت إليَّ، في نظراتها شك، أعرف ما يقف خلف عينيك، الذي يدور فــي رأســك، أنـــا عيشة؟!. عيشة منصور أبو الليل؟!، طالـــب إيـــد عيشـــة؟! ضحك أبي، قالت أمي بنفس الدهشة، عملت إيـــه معـــاه؟ رد أبي: عملت إيه؟ أنا قلت له لو شفته في البلد ح أرحله. هيه ح تصوم تصوم وتفطر على بصلة؟ كنت تحب: عنـــدما قـــرر والدك أن يغتال هذا الحب، جعل عيشة وأهلها يرحلون عـــن بلدتنا، بنفس الطريقة تفكر يا والدي، لوت أمي بوزها: أنـــا باحسب، ثم في كلمات ممطوطة: الواد أصله مش كـــويس، مهدد الحتة كلها، وإحنا لنا مصالح، ظهر الشر علـــى وجـــه أبي، أوعي تقولي الكلام ده تاني، أحبك يا أبي، أحـــب فيـــك هذه الرجولة الفياضة، من يكون هذا المجرم حتـــى يطلبنـــي

منك؟ لا بد وأنك قد عرفته، من يكون بالنسبة إليك يا أرجل الرجال.

* * *

لا أكرهك يا سكينة ولا أحبك، حياتك سر من الأسرار، أود أن أعرف ما يجري خلف هذا الباب الموصد، لا تقبلي أن تسمعي سيرتي على أي لسان، لا أحب زهران، لا أعرف الغيرة منك. كثير من رجال بلدتنا يدخلون عندك بالليل بعضهم يخرج والبعض الآخر يبقى حتى الصباح، عندما كنت صغيرة كنت أرى باب منزلك مزينًا برسومات، رجل فارس عملاق، رجل حقيقي. يركب حصانًا ويمسك سيفًا. شنبه يقف عليه الصقر. كنت أعتقد أن هذا العملاق مرسوم كي يحميك من ظلام الليل، والليل مقبرتنا، بل كنت أعتقد أن هناك علاقة ما بينك ــ وأنت أجمل من رأيت وأنا صغيرة ــ وبينه وهو الرجل الحقيقي بعدك يا أبي. أتضح لي أن هذا الفارس ولا حتى عشرة فرسان آخرين بقادرين على القيام بهذه المهمة. كنت تخافين أبي بمجرد أن تشاهديه تجرين إلى داخل منزلك. وإذا التقيت به خلعت حذاءك ولففت يدك بطرف الطرحة السوداء، نكست عينيك إلى الأرض.

وانهلت على يديه تقبيلاً. وهو يدعو لك بالتوفيق والستر. لن أكرهك. ليذهب إليك زهران. لن أحبك، ليذهب إليك حسن الأعرج. لن أكرهك. ليذهب إليك كل من هب ودب. في الأعماق نار تكويني في كل لحظة تمر. الستر مطلب الجميع. الحرام سيف مسلط على الرقاب، لن أحبك، لن أكرهك.

* * *

المكان مظلم رغم أننا نسكن في حارة واحدة، هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها هذا المنزل، القوة وحدها هي القادرة على أن تريح والدي حيث هو، صافحته دون أن أقبل يده المعروقة الناعمة، لا بد من معرفة القاتل أولاً، استغرب هذا التصرف مني. ما قيمة كل شيء ما دام الحاج منصور أبو الليل قد ذهب، لا أؤمن بمثل هذه الأعاجيب، ذهب الحاج منصور أبو الليل يا شجرة الدموع، حتى والدي لم أكن أقبل يديه، لن تفلح دموعك في أن تبدد الرائحة العفنة من حوله، كنت أحتويه بنظراتي، ذهب الحاج منصور أبو الليل، لا بد وأن هناك أيامًا قادمة من الحداد، كنت أضعه تحت رموش العين. ابك ما شئت، خير يا ست عيشة؟ الله

يرحمه أبوكي، لم يدفن بعد، انثــري أحزانــك علــى دوار الساقية. في عينيك نظرة شماتة، قدمي دموعك على طبق من الفضة لمياه الترعة التي تجري بلا مبالاة، لم تنظر إليَّ هذه النظرة الميتة؟ لست طالبــة حــب، لا الــدموع، ولا حتــى الأحزان، بقادرة على البقاء إلى جوارك، لم أحضر هنا لأكيد لضرتي أو أسأل عن السبب في هجر الحبيب، أنت وحــدك هناك يا أعز حبيب، كان راجل ولا كــل الرجــال، تقولهــا بطرف لسانك فقط، تكره والدي، تكرهني، تكره حتى جدران منزلنا، تحب أن تخلو لك الحارة أنــت وســكينة، الرجــال نادرون في هذا الزمان، يا ست عيشة، كلمة صادقة ولكنهــا ليست نابعة منك، يضع في عينيه كحلاً أســمر كمــا تفعــل النساء في ليالي الشقاء والرغبة، يا صنو الحربــاء، اســتدار إليَّ، المرة الأولى التي أراه فيها عن قرب ذقنه منسقة بعناية، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ ﴾، قلت لــه: دلني يا با الشيخ مسعود، اسعفني يا صبر أيــوب، يــا كــل الصبر، قلت بإصرار مين اللي قتل أبويا؟ تمتم بكلام غيــر واضح، نظر إلى السقف، صمت، نظر في كل اتجــاه كمــن يخاطب أناسًا لا نعرفهم، راح ينصت إليَّ متحدث وهمي، لا

شيء سوى الصمت الأخرس، الموضوع صعب وعـــويص، لم أرد عليه، سلسلة من المساومات، طلبات الأستاذ، لا أؤمن بك، أكرهك، رغبتي في معرفة القاتل هي التي دفعتني إليك، قل ما تريده، قال بصوت بطيء: الصبر يا ابن آدم، كلمـــات تقولها لكل من يشرف هنا، استعنت بصبر أيوب، ولكنه نفـــد يا شيخ مسعور، ناولته ما طلبه مني، استأذن قلـــيلاً، آه لـــو أعف القاتل، أبوكي كان له أعداء كثير، انتفضت واقفة، ماذا يعني قوله هذا؟ ودا يخلي معرفة القاتل أمر صعب، اكشـــف عما تطلبه بلا لف ولا دوران، اطلب مزيدًا مـــن المـــال إن شئت، سأعطيك ما تطلبه، لا بد وأن أعرف، قـــال بصـــوت هامس: أوعي تنسي أنه أتعارك مع زهران بسببك. زهران؟! كيف هذا؟ أصبح صوته أكثر همسًا، حسن الأعرج لـــه فـــي الميراث، إنه ليس أخي، قال بوضوح كـــالح: أنـــت لســـت صغيرة، أبوكي خلفه من بنت غرباوية اسمها عيشة، لعنة الله عليك يا شيخ مسعود، حسن الأعرج..! كيف هذا؟

ــ أنا حامل يا منصور.

كان والدي شفق عليه في بعض الأحيان، لم يرفعـــه إلى مرتبة الأبناء.

ـ وح أعمل إيه يا عيشة؟ أبويا موش راضي..

حسن نفسه لم يحاول الحصول على هذه المرتبة، قال لي مرة أحبك، كنا معًا في الزريبة. والعمل يا منصور؟ كان يفك رباط الجاموسة. مع أول تباشير الصباح كي يذهب إلى الحقل عندما سمعت منه هذه الكلمات التي لا تعني شيئًا، على وجهه بقايا نوم. يصحو مبكرًا، نظرت إليه نظرة أوقفته عند حده، من بعدها لم تصبح عنده وسيلة للتعبير سوى نظراته الخرساء، تحمل حبه وعجزه وضياعه.

ـ والله ما أنا عارف! ح أكلم أبويا الليلة.

هل يفعلها حسن الأعرج؟ محال أن يحدث هذا.

ـ أنت طول عمرك راجل يا منصور.

لم أسمع هذا التاريخ السري إلا بعد أن قتل الحاج منصور أبو الليل.

ـ أنت كل اللي ليا يا عيشة، بلدنا عمرها ما تعترف بهذا الكلام، الحب عذاب، والهجر عذاب، لازم تخليها تعترف، اللقاء أمنية عزيزة المنال، والهجران حل سهل، من المستحيل تنفيذه سيرحلني والدك عن البلدة يا منصور مع أول شعاع في الغد.

قال الشيخ مسعود: ثم إن البلد يا عيشة داخلة علـــى انتخابات الاتحاد الاشتراكي، ضحكت من ســذاجته، والـــدي ليست له أطماع سياسية، هذا مجرد كلام، تلــك مراوغـــات منك يا شيخ مسعود، الله أعلم ورسوله والمؤمنـــون، ولفـــي عليهم يا سيدي الشيخ مسعود، قلت له بصراحة: دلني ولـــك الحلاوة، تساءل في خبث: وبعدما تعرفني؟ انتشلتني عبارتـــه من أعماق اليأس، هل تعرف القاتل حقًا؟ قلت له بتصـــميم: أموته، تساءل: والحكومة؟ تساءلت بدوري بيني وبين نفسي: ماذا تقصد يا فضيلة الشيخ بالحكومة؟ حدد كلماتك، هل تعني العمدة؟ أو رئيس مجلس القرية؟ أو الاتحاد الاشتراكي؟ ماذا سيفعلون لي؟ من مات قد مات، ولا وقت عندهم لمثل هـــذه الأمور، إنهم مشغولون بما هو أهم من الذي حدث، اللي حـــا تعمليه مش حا يقدم ولا حا يأخر.

ــ كيف؟ اللي مات مات، ما مصـــلحة إلا مصـــلحة الحي، روحي ادفنيه أحسن.

ــ لم أحضر إليك كي أسمع هـــذه النصـــيحة، أنـــا أعرف ما يجب عمله، لو سمعت منك مزيدًا من النصائح، أو طلبت مزيدًا من المال، لقذفتك بالقلة الموجودة إلى جـــواري،

اخرس يا شيخ مسعود، كان والدي عنده الحق في القسوة على أمثالك، في نظراتك شيء جديد يلمع، هنيئًا لك بمفردك مع عيشة بنت الحاج منصور أبو الليل حضرت لك في منزلك، كنت تقرأ الفاتحة في أثناء مرورك أمام منزلنا، قل لي، احترت، لم أعد أطلب مزيدًا من الحيرة والأوهام، أغمض عينيه: لا يعلم الغيب إلا الله يا شيخ مسعود، قال بدلال مقزز: صارحيني يمكن أدلك، اقترب مني وفي عينيه بريق غريب، أصارحك بأي شيء. في الأعماق جرح ينزف، أصارحك بماذا؟ أنا عيشة منصور، عبرت صحاري الأوهام إليك، أمسكت بخناقه، أتمنى أن يعطيني الله القوة كي أطهر العالم من كل الأقذار، وارتعد في خوف، لم ينطق. لابد وأن تقول لي، قال في بساطة: ما أنا قلت، أنتي اللي بتحبي، ماذا تقصد؟ أقصد زهران، لم يحضر إلى حارتنا منذ أن طرده والدي، عندما ذهبت في الأسبوع الماضي إلى الجامع لم يكن ينتظرني في الشارع كعادته، لم تصل إلى أذني آهاته مع بكاء الساقية، لم أعد أسمع طلقات بندقيته تخترق الظلام، وتخدش الصمت، أين ذهبت يا زهران؟ حلمت ذات ليلة أن أمي القاتلة، وها أنت تقول لي أنه زهران

مرة، وحسن الأعرج مرة أخرى، عندما خرجت من منــزل الشيخ مسعود كان الظلام قد سقط على كــل شــيء، بــدت الحارة كمدخل قبر لم يدفن به أحد، الحارة خاليــة، صــفير الرياح كنعي دائم للحياة، سكينة تجلس أمام منزلها، عنــدما شاهدتني ضحكت ضحكة اهتز لها جسدها الجميل، انغرست الضحكة العاهرة في ظهري كخنجر، بعد قليل يبدأ عملك يــا سكينة، يا عيني على اللي حب ولا طالشي، الحداد، عندي ما هو أهم منك، لم أنظر إليها، لو استدرت إليك لمزقتك، فــي الصيف الماضي قلت أن حامد أخي ليس رجــلاً، تحــاولين التعرض لي، اشمتي، منذ شهر زعمت أن أبي ذهب إليــك، ذات ليلة لم يشرق قمرها، وأنه خرج من عندك كما دخل.

* * *

يا أرحم الراحمين، لا يمكن أن يحدث هذا، لا يمكن، حضر الطبيب الشرعي، لم يزل والدي راقدًا تحــت شــجرة الصفصاف، دي إجراءات لا بد منها، صحت فيه: دا حرام، قال بابتسامة: لا بد، كان يبدو عليه تصميم، أي لا بد هــذه، كنت أود أن أسمعها منك كنوع من التصميم علــى معرفــة القاتل والانتقام منه، أكرهكم جميعًا، أكره نفسي، لــن أقــف

مكتوفة اليدين، أنت مش يهمك معرفة القاتل؟ خرج صـــوتي كالفحيح: من هو؟ قال: التشريح هيوضح سبب الوفاة، خيـــب الله أملك، قال مواصلاً كلامه: وعن طريق سبب الوفاة نقدر نوصف للقاتل، قلت كمن أمسك بأمل وسط الزيف: إنما مؤكد يتعرف القاتل؟ وضع على شفتيه ابتســامة لزجـــة: لا مـــش مؤكد، إنما المؤكد معرفة سبب الوفاة، ألقيت الكلمـــات، دون رغبة في مواصلة الحديث، وبعد معرفة القاتـــل إجـــراءات طويلة بعد كده، طار صوابي، شاهدت الطبيب يتجـــه إلـــى الجثة، لن يحدث هذا، أوعي يا بنت الراجل شبع موت مـــن زمان، حتى أنت يا حلاق الصحة، تود أن تنتقم من ســـيدك، في العام الماضي هجرتك زوجتك، قالت إنك عـــاجز، منـــذ عالم تقترب منها، شاهدتك بنفسي وأنت تقبل طـــرف ثـــوب والدي، تقسم له أنك رجل، وأنك مستعد أن تمارس معها مـــا تطلبه أمام والدي، ضحك الرجل العظـــيم، طلـــب منـــك أن تذهب إلى منزلك، ذهبت إليك زوجتك في اليوم التالي، رحت يا كلب يا حلاق الكلاب، تقبل طرف ثوبه، عنـــدما زجـــرك رحت تجري في الطريق، عندما ابتعدت كنت أتســـاءل هـــل

تدعو له، أو عليه؟ الطبيب يتقدم خطوة أخرى، خلفه الحلاق، لا.

لن تدفنوه أبدًا، لن يتم تشريح جثتك، ستسيل الـدماء كي تروي شجرة الدموع، لن أقف مكتوفة اليـدين، هجمـت على الطبيب، كل ذرة من كياني تقول لا، ضربته، ضـربت حلاق الصحة، حملوني بعيدًا، لم يستطع أحد منكم أن يرفـع فيه عينًا من قبل، لا، أنتم شامتون، تمارسون ضده ـ وهـو سيدكم جميعًا ـ نوعًا من التمرد العاجز، لا لم أشاهد شـيئًا، أشبعتهم ضربًا، أغمى عليَّ، تداخلت الأصوات والمرئيـات، كم كرهتك في هذه اللحظة يا أماه، قل على الدنيا السلام، من أين تحضرين كل هذا الهدوء، إن كان ما شـاهدته بـالأمس صحيحًا فاسعفيني يا شجرة الدموع، أبكي اليوم دمًـا أحمـر قانيًا، لم يبق لدي دمعة واحدة، أنا أنـزف مـن الـداخل، لا تغضب يا أبي، حامد وهو رجلنا من بعدك، غيـر موجـود معنا، يطلب العلم وأشياء أخرى في البندر، فعلت كل ما أقدر عليه، حملوني بعيدًا عنك بالقوة، كان أهون عليَّ أن أقطـع بدلاً منك، أو أن أقطع معك، ويعذبونني بالحياة، ومواصـلة الحياة بعدك عذاب مستمر يا والدي.

ـــ يا حبة عيني عليك.

ـــ يا أعز حبيب.

* * *

ـــ اسمك؟

ـــ عيشة منصور أبو الليل.

ـــ عمرك؟

ـــ ١٩ سنة.

ـــ عنوانك؟

ـــ الضهرية ـــ مركز إيتاي البارود ـــ بحيرة.

ـــ شوفي يا عيشة. أنتي كنت أقرب الناس للمرحوم، وعلشان كده كلامك ح يكون له أهمية طبعًا في التحقيق.

ـــ طبعًا.

ـــ أنتي يهمك قبل أي واحد أنك تعرفي مين اللي قتل الحاج. وكمان تعرفي التصرف اللي اتخذ معاه.

ـــ ده مهم جدًا.

حبي لك أقوى من كل شيء يا أبي.

ـــ كان لوالدك أعداء؟

ـــ ما كانش حد يقدر يعلن عداءه.

ــ قصدي.

مسح جسدي بنظرات لزجة، هو عمره ما قالشي لك أن فيه حد بيعاديه؟ قلت كلمات أعيها ربما كان هنــاك مــن يكرهه، لكنه لم يكن هناك من يجرؤ على الاخــتلاف معــه، تساءل الضابط: أرجوكي دا تحقيق، ماذا تقصد؟ قصدي أنك تقرر حقائق. تاهت حقيقة كل شــيء. أرجــوكي حاجــات حصلت، وقائع محددة. مأساتي، أو مصدر متــاعبي أننــي أؤمن به أكثر من اللازم، كان منزها عن كل شيء، لم يكــن يصل إليه أحد، في بلدتنا آلاف الشائعات عنه وعن علاقاته، لن أصدق حرفًا واحدًا مما تقولون يا أهل السوء. نبــدأ مــع بعض يا ست عيشة، على أساس من الصراحة يمكن نقــدر نوصل لحاجة، وقف قبالتي، حصل إيه قبل مــا المرحــوم، تكرر كلمة المرحوم، لا، لن أضعف أمامك، استدرت إليــه، واجهته بنظرات ثابتة، كان الحاج منصور جدارًا يمنع عنــي كل هذا، وكان، وكان، حصل أن زهران الرفاعي طلب إيدك من والدك؟ لا أعرف، والدك ما قالشي لك؟ سمعته يتحــدث، أضعت كل الإمكانيات في حياتي طلبًا للمستحيل، كــان إيــه ردك؟ القصة قديمة نعرف كــل تفاصــيلها، لا تســتحق أن

تروى، حكى لي والدي الحكاية كنوع من سمر الجزء الأول من ليلنا الأسود، وهو يسحب نفسًا من سيجارة غليظة، لم يكن يسألني عن رأيي، أمال كان بيقول ليه؟ مجرد حكاية بسيطة نغوص بها إلى أعماق ليل طويل مظلم، يحلو لنا فيه السمر، والحكاية بلا هدف واضح، وحسن الأعرج شفتيه يا عيشة يوم ما كان خارج من المرحوم؟ قلت بلا رغبة في مواصلة الحديث: لم يكن في ملامحه شيء جديد، كان والدي قد خرج ليلتها، وقف حسن الأعرج قبالة الحجرة التي أجلس فيها. في يده اليمنى حبلان ينتهي أحدهما بالجاموسة أما الآخر فينتهي ببقرة اشتريناها من آخر سوق ثلاث مر بنا، على رأسه منديل محلاوي كبير، ففي يده اليسرى منديل آخر بهت من كثرة الاستعمال. تاهت معالمه بفعل الزمان واستعمله لحمل الطعام فيه. وبباقي أصابع يده كان يسند فأسًا وضعها على كتفه اليسرى، مساء الخير يا ست الكل، نظرت إليه، إلى ثوبه الممزق كحكاية الحياة معه، لم أرد عليه، ما إن أمد له حبل الحديث حتى يمسك به بنجاح ويطيل الحديث. الكلمات قديمة، معادة، ستقول لي أحبك، ستطلق الكلمة في الفراغ كعواطف العاجزين، ستقول أنك تعمل عند والدي

بسببي أنا، تصبحي على خير يا ست الناس، قلــت بتصــميم أقرب إلى المداعبة: أنا اسمي عيشة يا حســن. رد بفــرح: عاشت الأسامي. هم بأن يتحرك لولا البقرة والجاموسة لدخل الحجرة، وجلس إلى جواري وسكت، قال وهو يوهمني بأنــه خارج: تصبحي على.. قلــت وابتســامة حزينــة كالــدموع الصامتة ترف على شفتي: وأنت من أهله، تحرك، ظهر ظله على الجدار المقابل. الفأس على كتفه. ظل ربطــة المنــديل المحلاوي يبدو كعقدة بلا حل. من خلفه بدا الحبلان يشــدانه إلى الخلف كالمصير. قال الضــابط بعــد فتــرة صــمت: صارحيني يا عيشة. لم أسمع تهديد زهران لوالــدي. لــف الزيف كل شيء، حتى آخر مرة وصلك لغاية ســيدي تــاج الدين، أمتى؟ لم أرد عليه، ستطول أيام الحداد. يتحدثون عنك وعن ابنتك بعد أن ذهبت عنا يا سيد الرجال، ما فــيش حــد تشكي فيه؟ قلت وأنا أهم بالنهوض، لا أعرف، ظهرت على وجهه علامات الحيرة، لم أفده بأية معلومات تفيده، الســاقية عندها عفريت، لا أعرف عن هذا الموضوع الشيء الكثيــر، عفريت عبده الذي قتل من زمن، تهون الحياة بكل مســراتها في سبيل أن أعرف قاتلك يا والدي، والأرض أرض عبــده،

قال الضابط، لا بد من معاينة مكان الحادث، تحرك الضابط، وتحرك الركب من خلفه، توقف فجأة، بوقفته توقف الركـب المتحرك، قال لكاتب التحقيق، ابعـث فـي طلـب الطبيـب الشرعي، حركة حائرة ككل ما حولنا، الحاج منصـور أبـو الليل هو السبب في قتل عبده، أخذ الأرض لنفسـه، ولكنـه مات. لم يترك سوى عيشة وحامد أحد الأفندية، آمنا بك يـا رب، لا أسمع سوى كلمات التشفي.

ـ يمهل ولا يهمل.

ـ حد كان يقدر يقف قدام العفريت.

* * *

ما هو الحل يا أماه؟ استدارت إليَّ، الشـيء الوحيـد الحزين فيك هو جلبابك الأسود، كل شيء آخر فيك لا أثـر فيه للأحزان. كأنما الذي مزقت أعضاؤه ليس بزوجـك، أي حل يا عيشة؟ جاء تقرير الطبيب الشرعي مخيبًـا للآمـال، ضغط غير عادي على الرقبة، بصمات اليد التي خنقته غير واضحة المعالم، كان لسانه بارزًا، عيناه جـاحظتين، آثـار الخنق تحيط بالرقبة، من الذي قتله؟ لا يوجد بالجثة ما يـدل على أنه كانت هناك مقاومة تذكر من جانـب القتيـل، إذا لا

توجد إصابات أخرى بالجسم، لا بــد وأن نعــرف القاتــل، سرداب لا نهائي من العذاب والحيرة. وحتى لو عرفنا، ماذا سنفعل بعد ذلك؟ سنأخذ بثأره؟ قد يطول الحداد، قد يمتد إلى آخر أيام العمر الحزين، لا أمل، تقريــر الطــب الشــرعي أخرس، لم يقل شيئًا، يا عباد الله. توفي اليوم إلى رحمــة الله تعالى، من الذي سيأخذ بالثأر، أنا أم حامد، أم أنت، أم حسن الأعرج؟ زهران حبيب القلب، ليس هذا وقت السخرية منــي يا أماه، مضغت غيظي في ألم، ابنه هو الذي سيأخذ بثــأره، ابنه من؟ حامد، حامد منصور أبو الليل، ما قيمة حياة ذليلة، المسألة أصبحت حياة أو موتًا، ألا تدركين من الــذي قتــل؟ الحاج منصور أبو الليل، ألا تعرفين ما معنى هــذا؟ حســن صامت، انقطع زهران عن حارتنا، الفارس المرسوم علــى منزل سكينة لم يتمكن من حمايتها، حلق شنبه، كسر ســيفه، أعلن الاستسلام لليل الصمت، وخيمة الظلام. الليــل أبــدي كالموت عميق كالضياع، وفتحي أضحى أحد المستحيلات في حياتي، الحارة كــالقبر، المصــطبة كــالمنزل المهجــور. والحكومة لن تفعل شيئًا، يفرق بين العمدة ورئــيس القريــة وأعضاء الاتحاد الاشتراكي أمور كثيرة، ولكن يجمع بيــنهم

الكراهية العميقة لوالدي، والذي يشكو للعمدة ضعيف، الــذي لم يقدر على أخذ حقه بيده، قالها لنا والدي. سمعتها منه مرة، لن نذهب إلى أحد منهم. نصائح الشيخ مسعود تبدو كحكمــة بالية، ليفعلوا إجراءاتهم العقيمة، لن يصلوا إلى أي شيء، لن أعتمد على أي منهم، سأرسل في طلب حامد، لا بد وأن يقوم بنفسه بكل شيء، هذا شرف لا يجب أن يقوم به أحد ســواه. لو توانى حامد لحظة واحدة الموت أهون من أي شيء آخر. هناك أمور لا تباع ولا تشترى. الشرف والكرامــة وعــزة الإنسان. هي رأسمالنا في الحياة، لو بددناها ونحن قــادرون على هذا. لما وجدنا ما نواصل من أجله الحياة. لا بــد مــن الثأر له. لا بد وأن نعرف القاتل. لن أذهب إلى دوار العمدة. سينطلق حامد، سيثأر له، لو أتجوزت يا عيشة؟. قالتها أمي، تحاول أن تفهمني أن هذا الموضوع لا يشغل تفكيرها. أنــت مهتمة بهذا الأمر أكثر من اللازم. لو وافقت على أحد الذين سبق لوالدي رفضهم من قبل، واليتم معنى لزج، لــم أفهــم معناه إلا اليوم، اليتم يعني الضياع. الحياة بدون منصور أبو الليل شبيهة بالموت، اليتم مساحات من اللاشيء. اليتيم كتــل من الحداد، الموت معك حياة، ليس هذا وقت التفكيــر فــي

الزواج، لم تبدأ فترة الحداد بعد، الحداد قد يطول، قـد يمتـد عامًا آخر، لم أتزوج بعد، فأين أنت؟ الشامتون أكثر مـن أن يحصيهم العد فأين أنت؟ حسن الأعرج ابن لك فـأين أنـت؟ الشيخ مسعود يتحدث عنك بما يحلو له فأين أنت؟ لم طالـت الغيبة يا أعز حبيب؟ متى ستعود؟ لن أزف إلا إليك، ويلتي، لن أفرح إلا بك، مصيبتي! لن أحب إلا أنـت فـأين أنـت؟ الحداد، اليتم، الفرح، منصور أبو الليل، الضهرية الحزينـة الطعينة، الحاج المقتـول، العفريـت المنتظـر، الضـهرية المهزومة.

* * *

ألم يكن من الأحسن لك أن تكملي تعليمك يا عيشـة؟ كان من الأحسن فلا يا فتحي ولكن لوالدي رأيًا آخـر، لـم سكت حامد على هذا؟ إنها جريمة، أية جريمة؟ إذا لم يكن ما تريده فأرد ما يكون. هذا هو شعارنا، مضى عهد الغناء.

أنتي إنسانة عظيمة يا عيشة، مرت فترة تبادلنا فيهـا الصمت، تجرعنا الحزن بالتناوب ما ينتظرنا الآن بعيد عـن الفرح والغناء، بعد هذا أصبحت يا فتحي شيئًا آخر، عاد من دمنهور وهو يضع على عينيه نظارة طبية، لا حـداد الآن،

هناك عمل لا بد من القيام به، عمل لا يحتمل التأجيل. فتحي لا يرى من خلال النظارة إلا ما يروق له من أمور الحياة، فيك كنوز لا تحصى يا عيشة، أنا معجب بك، أنا نظرت إليه أطلب المزيد، كتلة صمت، عبثت يداه بأشياء لا أهمية لها، لابد من الثأر لوالدي، كيف أكسب احترامي لنفسي بقية أيام العمر إن كان للعمر التعس بقية؟ فتحي على علاقة بتلميذة من دمنهور، كنت أتمناك يا فتحي، لم قلت لي ذلك يا حامد؟ بيننا الآن كميات من العجز، الحداد، فتحي الأمل الذي مات قبل أن يولد، الأحلام التي دفناها معًا، ساعة الغروب، أبي المقتول، حسن الأعرج، الحب العاجز، النظرة الحيرى، التعبير الأخرس على الوجه المتعب المكدود.

* * *

اليوم الثاني من أيام الحداد الطويل.

القوا القبض على حسن الأعرج وزهران الرفاعي.

فيه دخل لحسن في الموضوع ده؟ نظر إلى أفق وادع، لا توجد أية أدلة مادية، هناك بعض الشكوك، يقولون: إن حسن الأعرج أخ لنا من امرأة أخرى. سبق لزهران أن توعد الحاج قبل قتله. لم أتكلم. الأمر محير. لا بد وأن أدفن

هذا السر بعيدًا في تلك البئر العميقة التي نلقي فيهـا بجثـث أحلامنا الميتة، ده مجرد شك، والشك دايمًا يفسر في مصلحة المتهم. أنا أكثر حيرة منك يا حضرة الضابط، كان حسن هو الوحيد مع الحاج ليلة مقتله، هو لم يقتله، ولكنه يعرف القاتل، ألححت على حسن بالسؤال، ضاق بي، بحثت في عينيه عن حبه القديم، تهرب مني، كانت إجابته: إنه لم ير شيئًا، فوجئ بالحاج مقتولاً في الصباح، حاولت معه المستحيل، تحول إلى كتلة من الصمت. لو تكلمت يا حسن لاسترحت من عـذابات لا حصر لها. كانت كلماتك ونظراتك تقول لي فيما مضـى: إنك مستعد لأن تدفع حياتك فداء لي، تضن عليَّ بالسر الآن، ثم أن فيه علاقة بين سكينة وزهـران، والـدي فـوق كـل الشبهات، حتى أنت يا حسن. حارتنا مسدودة. أين كانت كل هذه الأسرار؟ عرف الزيف طريقه إلى نفسك. وفيه علاقـة حب بين سكينة وحسن الأعرج. الشرخ قد أصبح تصـدعًا، ربما قضى على كل شيء، لم تكن الأمل الأخير الذي انهار، حتى أنت يا حسن. وأنتي عارفة إن فيه مشادة حصلت بـين الحاج وسكينة. عدنا إلى الحديث عن رجل لم تبق منـه الآن سوى ذكراه، لا أعرف أي شيء عما تتحدث، كثرت الديدان،

لا بد وأن هناك شيئًا ما يخص سكينة، محال أن يحدث هذا، محال وسكينة لم تقدم أي جديد في الموضــوع. فــي هــذه اللحظات بدأت تموت في نفسي يا أعز حبيب. هل كنت على علاقة بسكينة. هل قتلك أحدهما أو هما معًا؟ محال أن يحدث هذا، محال.

* * *

حضر حامد من دمنهور، حضر معه صديق عمــره فتحي، كانت المصيبة أكبر مما يحتمل حامد، لم يكن يتصور أن يحدث هذا لوالده، أهلاً فتحي، الحمد لله على السلامة. لم كبرت يا فتحي؟ أصبحت رجلاً في غفلة من الزمان، البقيــة في حياتك يا عيشة. حامد أنت في حاجة إلى مخلب وظفــر وناب، بعد هذا سأعطيك البندقية الموجودة عندنا، اشــتراها والدك أيام مجده، لم يكن يدرك يومها أن هذه البندقية ستأخذ بثأره بعد أن يقتل، حياتك الباقية، لم تبدأ أيام الحداد بعــد. لا أود عزاء من أحد، المصيبة أكبر من أن تقــال فيهــا هــذه الكلمات. والله دا شيء مؤسف. أن الذي قتل الحاج منصــور أبو الليل لن يقف عند هذا الحد، الخطر يهدد بلــدتنا كلهــا. الموت يتساقط على كل شيء كذرات الغبار في يوم اشــتدت

الرياح فيه. سقط الحداد على كل شيء حتـــى الأجنـــة فـــي الأرحام. أصيبت بلدتنا بعقم لا علاج له، لف الحـــزن كـــل شيء، كالظلام مع بداية الليل الطويل. وما العمـــل؟ ســـنأخذ بثأره يا فتحي قال في عجز، نأخذ الثأر من مـــين؟ لـــم أرد، أفهمك أنت وحامد، رغم كل هذا أحبك يا فتحي، حب لا بـــد وأن أكتمه في نفسي، أبوكي مات الله يرحمـــه، البـــوليس ح يعمل كل حاجة شوفي نفسك أنت، نظرت إليه في احتقـــار، حتى أنت يا فتحي، ثم إنك بنت حلوة وصـــغيرة، اســـتدارت على الحائط المشروخ، لا بد من الثأر لك يا حبيبي حتى لـــو اقتضى الأمر أن أكون بمفردي، انتشر العار في كل ركـــن من أركان منزلنا كالنشع أيام الفيضان.

* * *

يوم من أيام الحداد، عندما حملوا جثمانه كان الوقت ليلاً، دفنوه. لا. لا. لا تدفنوه. لم أستطع منعهم مـــن ذلـــك. أحسنتم صنعًا، كان من المفروض ألا يدفن، معذرة يا أبـــي. يا عباد الله.. توفي اليوم إلى رحمة الله تعالى. سأزرع فـــوق قبرك شجرة للدموع. لن أسير في جنازتك. الحاج منصـــور أبو الليل، حضر كل أهل بلدتنا، تقومون بهذا العمـــل بحكـــم

العادة، هل تحبونه أم تخافون منه، أن ما زلت هنا في أعمق أعماق القلب. والدفنة الساعة سبعة. شكر الله سعيكم. لن أقبل العزاء من أحد، لن أسمع كلمات النفاق، وكل من عليها فان. لن يوارى في التراب، حتى نأخذ بثأره أولاً. ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام. ليس هذا وقت الحزن والبكاء، شكر الله سعيكم جميعًا. العزاء مقتصر على تشييع الجنازة. غداة أن نأخذ بثأره سنقبل العزاء من كل الناس، سنقيم سرادقًا ضخمًا يقرأ فيه القرآن ثلاث ليال. الحداد في القلب. يا أعز حبيب. الحداد يعني الجلباب الأسود. الدموع المتحجرة في المآقي. القلوب التي لا تنبض إلا بالكراهية. النفوس التي لا تعرف إلا الحقد. الحداد. الحداد، يا أعز حبيب.

* * *

زهران يدخل منزلنا، ألف رحمة تنزل عليك يا سيد الرجال، لم يكن هذا الزهران يجرؤ على المرور من أمام منزلك، أفرجوا عن حسن وزهران، عادا معًا ذات صباح حزين، دخل حسن حجرته في آخر المنزل، البقية في حياتك يا ست الكل، لذت بالصمت، الصمت لغة العاجزين، الحمد لله

على السلامة يا حسن، نظر إليَّ بلا مبالاة، لم يتكلم. استمر في نظراته، قال زهران: أنا اللي ح آخذ بتار أبويا الحاج، رأس القاتل هية المهر، احتميت في قوقعة الصمت واللامبالاة، عملت إيه يا حسن؟ ندت عنه همسة صغيرة. لا تدل على أن ثمة حياة هناك. رفض الطعام أكثر من مرة أنت وحدك الذي يعرف السر. تصر على إخفائه، لو قلت السر لأرحت الدنيا كلها، وا كبدي عليك يا حسن. قال زهران في أسى حزين: يا عيشة دا حرام، دمه خفيف، كان من الممكن أن يحدث بيننا شيء، لو كنت رجلاً حقيقيًا يا زهران؟ أحد صعاليك بلدتنا. ولكنك رجل، حيرتني، ماذا تريد يا زهران؟ عايزك تفهمي يا عيشة. أنا بريء، نحن الغرقى في بحار التيه والعدم، أنا عيشة منصور، هل سألتك؟ قال لي أنا في الخدمة. نحن أهل. يقولون عنك كل شيء. ولكنك رجل. لا تفهم معنى هذا الكلام. لا يبدو أنك تعرف القراءة والكتابة. لست أخًا لي حتى تأخذ بثأر والدي. القبض عليك لا بد وأن له سببًا ما. سأعرف السر من حسن، لن يصمت إلى الأبد. هناك قوة لا يمكن تصورها تجبره على هذا الصمت.

في أي شيء تفكرين يا عيشة؟ استدرت إلى زهران. ما زال هنا. قال لي: أنا تحت أمرك. على استعداد لكي أفكر بدلاً منك. أنت تصلح لكل شيء سوى القيام بهذه المهمة البسيطة.

ـ أنا موجود هناك. ح أطل عليكي كل شوية. لغاية ما نعرف القاتل، قوقعة الصمت الأجوف مرة أخرى، الصمت مهرب، الصمت عذاب.

ـ رأسه حا تكون مهرك، قلت إيه؟

ضحك في رجولة دغدغت حواسي في أنوثة. قال وهو في طريقه إلى الخارج:

ـ السكوت علامة الرضا، أهل زمان قالوا لنا كده.

حسن صامت، رغم أنه الوحيد الذي يعرف السر، كان موت أبي في صمت، لم يخرج حسن من غرفته منذ أن عاد جالس هناك بمفرده في الصمت والظلام، أصبح يفزع من مجرد دخول أي فرد إلى حجرته، أنت تطلب الوحدة يا حسن. كان والدي أول ميت لم يقم له مأتم كبير، يليق بمنصبه، ليس منصبًا رسميًا، ولكنه شيء في قلوب الناس، ما أطلبه منك يا حامد ليس مستحيلاً، عما قريب سنعرف

القاتل، بعد معرفته يبدأ عملك، عمل أحسدك على القيام بـــه بمفردك، بودي أن أشترك معك، أن نخرج معًـــا، لنعـــرف السر، ولنأخذ السر، سنمزق أستار الوجود بحثًا عن الســـر، سنعبر المجهول معًا على جناح من البغضـــاء، بـــودي لـــو أبعدتك عن فتحي، يتحدث عن شيء اسمه الســـلام، وعمـــا يمكن أن تفعله الحكومة، أمي توافقه على كلمـــات لا أفهـــم معناها، بالأمس شاهدتك تغمز لسكينة، افعل ما يحلـــو لـــك، عندما يبدأ الثأر للمرحوم أرجو أن أجدك إلى جواري، بـــل أمامي، أرجو أن أجد فيك حماس الرجال، بل حماس زهران الرفاعي فقط.

* * *

خرج حسن الأعرج من حجرته اليوم.

عندما سألته أمي عن وجهته أشار إلى لا شيء، لـــم يكن فيه إلا بقاياه، ماذا دهاك يا حسن؟ تحمل الســـر؟ هـــذا يعذبك، قله لي واسترح، نظر إليَّ في حزن عاجز أو عجـــز حزين، اقترب مني.

كانت أمي في الداخل، خفت منه في أول الأمر، تحملت، جلس إلى جواري، ربت عليه، أحطته بذراعي، بكى، بكاءً حقيقيًا، أقرب إلى النزيف منه إلى البكاء.

رفع وجهه إليَّ، نطقت ملامحه بالعجز، أحسست بغصة في الحلق، تحركت شفتاه في رعشة وشت بالضياع، خرجت الكلمات كأنها بقايا الجثث تخرج من قبر مهجور، جاء المخاض، لن نلد سوى الحزن، جاء المخاض، كل شيء عاقر، المخاض يا حسن، المخاض،

ــ هات ما عندك، جاء المخاض.

* * *

نحن في فصل الشتاء، لا شيء في الشوارع سوى الرياح فهي تهب بعنف كي تدمر كل شيء، أنت في حاجة إلى من يدفنك الآن يا أعز حبيب، المقابر باردة، صوت ناي مشروخ يأتي من بعيد، جدًا، كل المنازل تغلق في رعب دائم، الجو ملبد بالغيوم، ليلة أن قتل والدي كان الجو صحوًا، القمر يرسل نوره وأحزانه لكل شيء، حسن لم يعد حتى الآن، لن أصدق ما قتله لي يا حسن، لن أنام حتى تعود ولو مكثت بالخارج حتى الصباح، دون الثأر لك يا أبي تهون

الدنيا بكل ما فيها، مهما تهربت مني يا حامد فلقد آن الأوان لنفعل شيئًا ما، كفانا ما فات، الخطر لا يتهدد الرجل الذي مات فقط، يتهددني، يتهددك، يتهدد كل فرد في الضهرية، لابد وأن تجعلنا هذه الصدمة نفيق من النوم العميق، أي شيء خير من هذا السكوت.

قد تطول أيام الحداد يا بلدي.

فمعذرة..

سيكون هذا المساء حافلاً. سقط الظلام في هدوء كذرات الموت التي تتساقط في كل لحظة على الناس، لف القرية هدوء شبيه بالموت، حسن لم يعد حتى الآن، أكل الظلام النور الباهت في منزلنا، لفه سواد حزين، الغفير محمود مصطفى البرادعي، وهو الغفير الذي كان معينًا لحراسة جثمان والدي عند الساقية. ذهب إلى معاون نقطة البوليس، أخبره أن عنده أقوال ستفيد في البحث عن القاتل، أين أنت يا حامد؟ أين أنت؟ حان وقت العمل، إن لم تقم أنت به يا حامد، سأقوم به بنفسي، حتى زهران لن أعطيه الفرصة، فهو غريب عنا.

حان وقت الانتقام.

هنيئًا لك يا بلدي.

بعد قليل ستستريح في نومتك الأخيرة يا والدي. كدنا أن نعرف القاتل، سألقاك بعد قليل. سألقاك يا حامد، انقضى عهد الهزيمة والانكسار والحزن، في انتظار عودة الغفير محمود البرادعي من التوفيقية، متى يعود حسن من الخارج؟ منذ أن خرج من المنزل مع أول هذا المساء لم يعد، سأمزق أكفان الصمت والظلام بحثًا عنك، لولا القيل والقال لذهبت إليك مهما يكن مكانك. سأنتظر عودتك خلف باب منزلنا، أدغدغ القلق، استنشق بدلاً من الهواء أمورًا أخرى، بدأ المطر يهطل، مزيدًا من الرعد والبرق يا سماء بلدتنا، حطمي كل شيء. انتظري قليلاً، سأنتقم أولاً.

أشنع انتقام، ما حدث كان شيئًا ضخمًا لا بد وأن يكون الانتقام من نفس المستوى، معذرة يا أبي، أنت بمفردك الآن، حبات المطر تلمع في الظلام، الظلام محنة. مياه المطر باردة، قبرك وحده في العراء، آه لو استطعت أن أدفنك هنا في المنزل.

* * *

قتل حسن الأعرج. معذرة، حسن منصور أبو الليل.

بنفس الطريقة، على الساقية، وجدوه ملقــى تحــت شجرة الدموع، بجواره خمسة جنيهات مطبقة، نزفت القلــق، تجرعت العذاب، كنت السبب فيما حدث لك يا حسن، لم تعش حياتك بعد. نزفت الحياة قبل أن تبدأ رحلتها الطويلة، كانــت حياتك مأساة، الموت بعدها مأساة، قتل العفريت والدي، أخذ أرضنا، وأخذ الساقية بالقوة، من سيذهب إلى هناك ســيقتله، هكذا قال، الأمر لا يقف عند حدود قتل والدي، أو قتل حسن الأعرج، إنه تهديد لنا جميعًا، ضاع الشــيء الكثيــر، ومــا سيضيع أكثر، لن تقف الأمور عند هذا الحــد، لا بــد مــن الانتقام، حتى لو كان هذا الانتقام من العفريت.

* * *

ـــ يا حبة عيني عليك.

ـــ توفي اليوم إلى رحمة الله تعالى.

ـــ كل من عليها فان.

ـــ يا أعز حبيب.

ـــ ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

ـــ لن تدفنوه أبدًا.

الهزيمة

الهزيمة

كان رجلاً، ولا كل الرجال.

كان رجلاً، والرجال في هذا الزمان قليلون.

* * *

دون جسدك يا سكينة يهون كل ما في الدنيا، حتى الأمل والرجاء، وحتى الحاج منصور أبو الليل نفسه. التراب الذي تسير عليه عيشة أحلى منك، عيشة بالنسبة لي نوع من المستحيل، من الممكن الحصول عليك يا سكينة، تطلبين مبلغاً من المال، سأحصل عليه، لا بد من الحصول عليك، أحب عيشة ولكن في جسدك ما يشدني إليك، كثيرون يدخلون عندك. أشاهدهم بنفسي، أسهر على باب منزلنا، أقصد باب الحاج منصور أبو الليل حتى بعد منتصف الليل، كل الخارجين من عندك يبصقون على تحياتهم اللزجة. يتمنون لي أن أمحمى من الوجود، ها أنذا مثل العفريت، لم أرض، أسمع عن الدكتور، لم أره في حياتي، أرجو أن أظل هكذا إلى آخر العمر، سكينة مستعدة أن تمنحني ليلة من العمر، مقابل مبلغ من المال. عيشة لا ترد عليَّ السلام، اسمي

مكتوب في بطاقة التموين، لم أستخرج بطاقة شخصـــية وإلا أخذوني العسكرية ثلاث سنوات، مكتوب أن اســـمي حســـن منصور أبو الليل، والحقيقة خلاف ذلك، ربما كانت هذه هي الحقيقة، قالوا: أنني بلا أب وبلا أم، حضرت إلـــى الوجـــود كشيء غير مرغوب فيه، طفل صغير، يستنكره أبوه، وتنكره أمه، لا بد وأن أمي تعيش هنا، وأن والدي أحد الذين ألتقـــي بهم، قد يكون الحاج منصور أبو الليل نفسه. وهذا هو الســـر في أنه احتفظ بي لنفسه، أما أمي فقد تكون أيـــة واحـــدة. لا أرغب في أن يكون والدي هو الحاج منصور أبـــو الليـــل. معنى هذا أن تكون عيشة أختًا لي. أحب عيشة. قد أتزوجها ذات يوم، ما أحلم به نوع من المستحيل، ولكن هل هناك مـــا يحرم الأحلام علينا؟ سكينة تعطف عليَّ في بعـــض الليـــالي السود، لا بد وأن وراء هذا العطف أمورًا أخرى.

أنا مجرد عامل عندكم يا عيشـــة. ولكنـــي إنســـان، يقولون لي حسن الأعرج، أنا لا أعرج، أمشي كالحصـــان، أسعد لحظات العمر التي نخرج فيها سويًا في مشوار، هـــذا المشوار يكون في الذهاب إلى سيدي تاج الدين، لا تـــوجهين لي كلمة واحدة طيلة المشوار، مجرد المشي أمـــر جميـــل،

(هيا إلى الجامع يا حسن) أنتظر هذا اليوم، يوم الخميس بالليل أو ليلة الجمعة كما يسميها المتزوجون، نغوص معًا في ليل أسود صامت، زهران يتابعنا كل خميس، يبدو أنه ينتظرنا، أنا وعيشة، في مكان ما، ثم يتابعنا، كلماته لزجة، تقف ابتسامته عند شفتيه في حركة صعلكة. أنت أيضًا تطلب المستحيل يا سيد زهران، لو علم الحاج منصور أبو الليل بذلك لقضي عليك.

ــ الواد دا مش نازل لي من زور.

قلتها بقرف، قالت في براءة:

ــ واد مين؟

ــ الولد اللي اسمه زهران.

نظرت خلفها، شاهدته، مسحته بنظرة وشت بحب الاستطلاع ممزوجًا بالدهشة والانبهار، فرح هو بذلك، أدارت رأسها. لم تقل شيئًا، هل يرضيك ما يفعله يا ست الناس؟.

ــ أنا حا أقول لأبويا الحاج منصور.

فزعت، هدأت من روعي:

ــ لا يا حسن مش وقته.

قلت بشجاعة مبطنة بالخوف:

ـــ سيبني أرجع له.

قالت في استسلام جميل:

ـــ مش حا ينوبنا إلا الفضيحة.

كان زهران قد اقترب منا، أخاف منه، إذا كان الأمر يتعلق بعيشة فدونها يهون كل شيء.

ـــ أنت عارف البنت عيشة، بنت الغرابوة.

على استعداد لفعل أي شيء في سبيلك يا عيشة.

ـــ آه..

كانت كلماته مثله، بلا هدف سوى معاكسة عيشة، لو علم الحاج منصور بذلك، لن يلوم إلاي، لا بد وأن أصفي الحساب، معه فيما بعد.

ـــ اللي كانوا ناصبين خيمة قبلي البلد.

في الأسبوع الماضي تشاجرت معه، قال لي إنه سيتركني من أجل عيون عيشة.

ـــ ما لها؟

ـــ هي اللي خلفت حسن الأعرج، حبلت من الحاج منصور. كان لسة صغير، طيش شباب، رفض أبوه.

لولا هذا، لا تكمل التهديد، زهران: أعـرف بـاقي كلامك.

لا عمل لك إلا تهديد الناس، تحصل على كل شـيء منهم، لا أعرف ما هو الشيء الذي تطلبه مـن عيشـة، ألا تكفيك سكينة يا أخي؟ ما جلست أمام منزل الحاج منصور إلا وكنت أول الداخلين عند سكينة وآخر الخارجين من عندها.

ــ كان ظالم، تاني يوم طردهم من البلد.

* * *

مساء الخير يا ست سكينة، نظرت إليَّ، أخذت نفسًـا من سيجارة في يدها، تعيشين بمفردك بعد أن ألقوا بزوجـك ــ أقصد الذي كان زوجًا لك في الماضي ــ فـي السـجن. جميلة برغم هالات السواد التي تحيط بعينيك، جميلـة رغـم شعرك المنكوش، أنت أجمل مما قد يتصور الإنسان، خـرج الدخان من فمها وأنفها كثيفًا، (مساء النـور يـا حسـن ــ ضحكت ضحكة اهتز لها جسدها الجميـل ــ يـا أعـرج) فرحت، قد يكون هذا بداية شيء ما تفعلـه الليلـة، اقتربـت منها، قليل من الشجاعة يا حسن أجمل ما في الدنيا أحضـان امرأة دافئة في إحدى ليالي الشتاء الباردة، لا تتحـدث عـن

الحجرات الدافئة، أو الشاي الأسود، أو المعسل المغموس، أو الغطاء السميك، أحضان سكينة كفيلة بأن تمنحني الدفء والأمان وأيضًا اللذة، قلت لها بمراوغة: أنا يعني بأقول.. نظرت إليَّ، أنت تعرفين ما سأقوله يا ست المعلمين (قول اللي أنت عايزه دوغري) أنا أريدك أنت، حرام أو حلال، أريدك أنت، تعرفين هذا جيدًا يا سكينة، لم تتجاهليني؟ ألست رجلاً، أنا رجل عندي من الرغبة فيك ما هو كفيل بأن يسعدك ليلة كاملة من العمر (ما أنتي عارفة اللي أنا عايزه، عايزك أنت) قالت بملاينة الذي يريد: (ما كانش يتعز يا حضرة) أعترف أن ملابسها غير نظيفة، خيل إليَّ هناك رائحة ما تنبعث منها. ولكنها جميلة رغم كل هذا. (اشمعنى أنا يا سكينة، أني عايزك) تناهت إليَّ ضحكة بيضاء منها، اهتز جسدها، شيئان جميلان فيك يا سكينة، الأول أنك بيضاء في لون القشدة، والأمر الآخر أنك سمينة ينام الإنسان فوقك دون غطاء (عايزني يعني إيه؟ إزاي؟) لو جمعت بيني وبينك غرفة واحدة، لجردتك من كل ملابسك، وعلى ضوء المصباح الباهت، والذي يتراقص في حزن وانكسار كحياتنا، سأجلس كي أشاهد مفاتن جسدك (زي ما تقولي، في

الحلال) خبطت صدرها بيدها، سعلت سعلة ممطوطة، (وأنت معاك إيه؟) اقتربت لحظة السعادة الحقيقية. أصبحت قريبًا جدًا من الحصول على سكينة، أبيع الحياة بكل ما فيها في سبيل الحصول عليك يا جميلة، معي ما تطلبيه، اطلبي، قالت ضاحكة: أطلب إيه؟ اطلبي ما تشائين، طلبت ست الحسن والجمال من الشاطر حسن أن يحضر لها تفاحة الحياة، من بلاد بعد بلاد واق الواق، قالت في حزن صامت: أريد جزءًا من القمر، قمر أيام زمان، قمر زماننا هذا أصابه عقم رهيب، قمر هذا الزمان يبصق علينا نورًا أصفر باهتًا، قلت لها بين الفرح وخيبة الأمل: سأحضر لك القمر، قمرًا حقيقيًا، اتفقنا إذا، قال الشاطر حسن: بلاد الواق الواق بعيدة المنال، قامت سكينة، دخلت إلى منزلها، لأول مرة أشاهدك حزينة، لم أكن أعرف أنه من الممكن أن تحزني، قلت وأنا أتشبث بآخر أمل: نقرأ الفاتحة. أشارت إلى داخل الحارة، اقرأها أنت والشيخ مسعود. ما دخل الشيخ مسعود في ذلك؟ قالت: اقرأها إذن مع الحاج منصور أبو الليل. بعد أن أغلقت الباب في وجهي، استدرت، الحارة لا يوجد فيها أحد. لم هذا الصد يا سكينة؟ قالت ست الحسن والجمال: محال، محال،

أغلقت سكينة الباب في وجهي. وقفت مصلوبًا في منتصف الحارة، أحسست طعم العجز والهزيمة في حلقي. قالت ست الحسن والجمال، باب سكينة مغلق كأنه المصير.

* * *

عيشة في حجرتها، فتحي يجلس معها، في انتظار قدوم حامد من الداخل، لم تنظرين إليه بهذه الطريقة؟ ويقولون: إنهم وجدوه مرميًا قبلي البلد. الفراغ في ليلنا لا يفرخ سوى الجريمة والزنا. حتى أنت يا ست الكل تحبين شخصًا آخر.

يقولون في القرية: بينما كان الحاج منصور أبو الليل ذاهبًا إلى الحقل في الصباح الباكر سمع صوت طفلاً يبكي بين أكوام السماد.

ــ ليه دخلتي على فتحي يا ست عيشة.

ويقولون: إن الحاج منصور أبو الليل قد أحضر هذا الطفل إلى منزله. أقصد منزل والده. وحتى الحاج منصور نفسه لم يكن قد حج إلى بيت الله. بيد أن هذا اللقب يكون ذا أثر رجعي في الريف، ويحكي أن عيشة كانت قد حملت وبعد الحمل تخلى عنها. تركها تذهب ككلمة تائهة في ضمير

الغيب. ويحكي أن الذي تركته سمي حسن. واشتهر فيما بعد بحسن الأعرج، ويحكي أن..

نظرت إليَّ نظرة زاجرة. لن أخافك. لكل شيء حدود يجب ألا يتعداها، فتحي زميل حامـد. ولحامـد كثيـر مـن الزملاء، لم هذا بالذات، قالت لي عيناها بدلال واضح. وأنت مالك؟ نطقت ملامحي بالمثل القائل (هو السـؤال حـرم) اقتربت مني محذرة بدلال جميل: أنت مجرد شغال هنا، أنـا لست عاملاً فقط، أنا فرد من أهل هذا البيت يا عيشة، هددتها بأن أقول للحاج منصور، لم تهتم بما قلت، أنت أقرب أهـل هذا البيت إلى قلب الحاج منصور أبو الليل، نحن ندرك هذا وما دفعني إلى هذا سوى الغيرة الحمقاء، هل تحرمينني هذا الحق، سارت بعيدًا عني، بدت مزق الضـوء فـي المنـزل المظلم، كثوب تم ترقيعه أكثر من مرة. نظرت إلينا الجدران في حزن صامت، ماذا جرى لك في هذه الأيام يـا حسـن؟ تساءلت عيشة. لولا الخوف لبكيت بين يديك بقية أيام العمـر يا عيشة. لقدمت لك كل أحزان العمر الطويل، ما باليد حيلة، فتحي متعلم وشاب، له مستقبل، له أرض سيرثها، ميراثـي من الحزن والعقم كثير كثير، ورثته قبل أن أولد، أبيعه إياك

بلا ثمن، له أب وله أم، أين أنا منه، لن أحقد عليه، ســأحبه من أجلك أنت، معذرة يا أحب الناس، لا تلوميني على تدخلي في أمورك، ربما كانت عواطفنا نحو الذين نحبهم كل الحــب هي الشيء الوحيد، الذي نخجل من قوله بصراحة وبصــوت مسموع، مرة أخرى. معذرة.

* * *

كان جالسًا على المصطبة، ضخمًا، عملاقًا، رجــلاً ولا كل الرجال، كانت شمس هذا اليوم قد استراحت متعبــة منهوكة في الغرب، لم يبق قبل أن يغطس قرصها الأحمــر القاني في مياه ترعتنا الهادئـــة الوادعـــة، ســوى لحظـــات الانتظار.

ــ أنا كتر خيري اللي بوكلك.

نظرت إلى الأرض: أنا أعمل وأعيش من عملي، ما أطلبه يا حاج منصور ليس نوعًا من المستحيلات.

ــ أنت مش ابني علشان أعلمك.

تلك هي بلوتي ومأساتي، أمعنت فـــي النظـــر إلـــى الأرض، إياك أن تفكر في موضوع المدرسة مرة أخـــرى، كان قد حضر من أخبرني بضرورة ذهابي إلى المدرسة كي

أتعلم، فرحت، جريت إلى الحاج منصور كي أخبره، منين أصرف عليك؟ معك من المال ما يصرف على بلدتنا بأكملها، أرضك بلا حدود، لك نصف مواشي البلدة، دعك من هذا يا حاج منصور.

ـ مين اللي يسرح الغيط، مين اللي يراعي حالنا يا حسن؟

هذه هي المرة الأولى التي تناديني فيها باسمي، اكشف عن نياتك أنت تريدني للعمل عندك. قلت في همس، الذي سيتخلف سيتغرم، نظر إليَّ في استياء: يعني خايف عليَّ من الغرامات؟ بعد فترة صمت: ما لكش دعوة أنا أتصرف، كل أمور الحياة تتصرف فيها بمفردك، كل الأمور في قريتنا، قلت وأنا أمسك بنفسي كي لا أجري خوفًا منه:

ـ طيب أروح الكتاب، أحفض القرآن.

فكر في هذا الطلب، مسحني بنظرة غيظ، كاد أن يضربني، صمت، قال:

ـ روح، بعد ما ترجع من الغيط، المهم شغلنا إحنا الأول بلا تعليم بلا غيره.

* * *

ـــ اسمك؟

يا خسارة.

ـــ حسن منصور أبو الليل.

يا خسارتك في الموت يا حاج منصور.

ـــ ابن المقتول؟

مصيبتك فيه يا بلدي كبيرة.

ـــ لأ...

ـــ أكبر مما قد يتصور الإنسان.

ـــ قريبه؟

ـــ لأ.

ـــ نسيبه؟

ـــ لأ.

ما هو السر في اسمك هذا؟ اسمه الحاج منصور أبو الليل. إذن أنت ابنه؟ قلت: لأ. لست ابنًا له، أخذه العمدة بعيدًا، لا بد وأنك تزيف له الأمور. لم لا تتكلم هنا أمامي؟ وما تقوله غير صحيح، هذا العمدة يكرهني وإن كنت أجهل السبب، ربما لأنني لم أذهب إليه لا شاكيًا ولا مشكوًا في حقه، ستقول له ـــ إنه أي أنا ـــ لقيط، وجدوه بين أكوام

السماد ذات صباح حزين لم تشـرق شمسـه. وإن الحـاج منصور قد أخذه وسماه باسمه، الحكاية ليسـت سـرًا مـن الأسرار ولكنك تحب أن توهم ضابط البوليس بأنـك عمـدة شاطر. أخيرًا تنازلت يا مزيف كي تهتم بشئون الرعية، لولا وجود حضرة الضابط لما ظهر منك كل هذا الاهتمام، عـاد الضابط بعد قليل. لا حول ولا قوة إلا بالله، ضرب الضـابط كفا بكف، مصممة الشفاه من كل جانب، العمدة يمسح شاربه في زهو وخيلاء لا أريد شماتة من أحد، ما حدث لا دخل لي فيه، لا أحب هذا الإشفاق منكم، شوف يا حسن، أنصت إليَّ. اقترب مني، أصبح حديثه أقرب إلى الهمس:

ــ أنت الوحيد اللي كنت مع الحاج ليلة ما اتقتل.

ــ دا صحيح.

ــ كلامك يعتبر أهم كلام في التحقيق.

ابتسمت في زهو، مات الحـاج منصـور، أخيـرًا أصبحت مهمًا يا حسن، لم تكن أكثر من مرمطون في منزل الحاج منصور أبو الليل، تتحمل بقدر من الحب طلبات عيشة وتتحمل بقدر من الكراهية طلبات الحاجة طمان، لن أضعف يا حضرة الضابط، لن أبوح بسري لأحد، هكذا اتفقـت مـع

العفريت، قرأنا معًا الفاتحة، لا بد وأن يظل هذا السـر لـي وحدي، لو قلته لأحد ما فمعنى هذا أنني سأدفع حياتي ثمنًا لهذا القول، لا شيء يقف دون العفريت لا أحد يقدر عليه، أعطيته كلمة نهائية، وعد الحر دين عليه، لست حـرًا، هـذا صحيح، حياتي نفسها ليست ملكًا لي، عندما فكرت في ترك القرية هددني الحاج منصور بالقتل: أنت فاكر نفسـك حـر؟ قلت لنفسي في حزن: لقد كبرت، هذا العمل لن يـدوم لـي. صمت قليلاً، رد السلام على أحد المارين، لم تكن لي أم، لم أقل لأحد يا أمه، كلمة " أبويا " لم ترف على لسـاني، نظـر إليَّ، أخاف نظراته، سمعت طفلاً على رأس الحارة يصـفق بيديه في فرح طفولي، أبويا جه، أبويا جه، انغرست الكلمات في قلبي المثخن بجراح الهزيمة المرة، فحزنت على نفسي.

ـــ يا حسن أنت بتاعي، وأنا اللي ربيتك وأنـا اللـي اديتك اسمي، أعرف كل هذا، جميلك فوق الرأس، لن أتركك يا حسن، لقد أصبحت فردًا منا، عيشة في المنزل، وحامد في المدرسة، أكمل حديثه برقة:

ـــ أوعى يا حسن نفسك توزك تهرب.

خفت منه، إنه قاس:

ـ أنا بحبك دا صحيح، إنما لو فكرت في الهرب حا أخلص عليك.

لن أرحل عن البلد، سأعيش بقية العمر معك، أنا لا أرض لي، وما باليد حيلة، لأ، لن أبوح بسري لأحد، لن أخون عهدي مع العفريت لا بد وأن نحرص على الحياة، فهذا هو المبرر الوحيد لأن يتحمل الإنسان كل متاعبها وأحزانها.

* * *

ـ نكمل التحقيق. سنك؟

ـ ٢٩ سنة.

ـ عنوانك؟

ضحكت في مرارة.

ـ الضهرية ـ مركز إيتاي البارود ـ بحيرة.

ـ أوصف اللي حصل بالضبط.

تحيرت.. كيف؟ لا تقترب مني كي توهمني بأن ما سأقوله سيظل سرًا بيننا.

ـ قول اللي حصل.

قلت:

ــ سيادتك تسأل وأنا أجاوب.

والدي المحترم الحاج منصور أبو الليل، الضـــهرية، بحيرة، دام.

ــ حسن مش عاوزين ملاوعة.

بعد التحية، قلت في دهشة:

ــ هيه فين بس الملاوعة يا سعادة البيه؟

نعرفك يا والدي الحبيب بأننا..

لم تنظرون إليَّ هكذا يا زبانية البلد، هذا لــيس مــن عملكم. خرج الموضوع من عندنا نهائيًا يا حضرة العمــدة، لن تكون هناك مساومات مع شيخ الغفر، قال الضابط بصبر نافد.

ــ يا حسن الوضوح ما فيش أحسن منه.

حالتنا جيدة، الوظيفة مريحــة، عــداك العيــب، لا ينقصنا سوى مشاهدة رؤياكم الكريمة يا والدي الحاج.

ــ أنت الوحيد اللي شفت الجريمة.

يصل ويسلم إلى الحاج منصور.

ــ واضح.

ــ يبقى لازم نعرف منك تفاصيل اللي حصل، من أول ما طلعتوا من الدار لغاية الحاج منصور ما أتقتل.

ــ ألف رحمة ونور تنزل عليه.

يسعدني يا والدي الحاج منصور، أطلب يد كريمتكم عيشة، بين القلبين قصة حب أخرس صامت لا بد وأن تباركه يا والدي، أنا في انتظار ردكم. والسلام.

* * *

الشيء الوحيد الذي يعذبني حتى الآن، أنني غير قادر على أن أصارحك بكل ما حدث يا عيشة. غصب عني، أود أن أفضي لك بكل ما حدث. لو حدث هذا ستكون حياتي هي الثمن، مهما كانت رغبتي في سكينة، فأنت الحب الأول والأخير، رغم أن فكرة كوني ابن الحاج منصور أبو الليل تسعدني من ناحية، فهي تشقيني من الناحية التي تجعل حبي لك نوعًا من المحرمات، عاهدت العفريت ألا أبوح بالسر، قد أضعف في لحظة من اللحظات وأحكي لك يا عيشة، هذه أول مرة أدخل فيها دوار العمدة. مكان كالح. مصطبة الحاج منصور أبو الليل ــ يرحمه الله ــ أنظف من هذا المكان، البنادق التي تثير الضحك مرصوصة كي تطارد الأوهام في

ليل أسود. بطانة السوء تحيط بالعمدة من كل جانب، تنظر إليَّ، لست متهمًا، بل مجرد شاهد، سأريكم من الآن أنني لم أكن أستمد وجودي من الحاج منصور، بل إنني رجل حقيقي. ستعيرونني بأنني مجرد لقيط، عندئذ سأطلب منكم أن تحضروا معي لتروا الداخلين إلى بيوتكم بعد العاشرة مساء، والخراجين منها، سأدعوكم كي تسمعوا التأوهات تخرج من نوافذكم التي سودها دخان الفرن، والتي أصبحت في لون صدوركم وقلوبكم، لماذا رحلت عنا يا سيد الرجال؟ لم بكرت بالرحيل؟ ليتك لم ترسل حامد كي يتعلم في دمنهور، ما قيمة العلم في بلدتنا، كانوا يخافون منك يا أرجل الرجال، وأنت لا تعرف الشيء الكثير، في ليلة الدخلة سأقول لعيشة أحبك، لن أبوح بسري لأحد، ولا حتى لعيشة نفسها، لن ترد عيشة عليَّ، سأحل مكان الحاج منصور أبو الليل وأكيدكم، سأقول: الصمت علامة الرضا، سأكون رجلاً، سأقول لعيشة في فحولة الرجال، لعن الله الخجل، سأمنحها حمايتي واسمي، يا حسرتي.

* * *

كنت أنا والحاج منصور سارحين الغيط.

ــ كويس.

ــ صلينا العشا، أنا والحاج وخرجنا.

همهمة استنكار، سيصفون الحاج بأنه ظالم، تلك هي طبيعة الأمور، ستقولون، أنه شوهد خارجًا من منزل سكينة ذات ليلة وأنها في تلك الليلة لم تمنحنه نفسها، خرج مكسور الخاطر. الذين يعرضون ما عندهم للبيع لا يبيعون لكل الناس. بين البائع والمشتري يفتح الله عليك، ربحك الله، كل شيء تجارة.

ــ كنا مخلصن صلا.

إذا كانت هناك علاقة ما بين الصلاة والصوم والحج والزنا والظلم والقتل ففسروا لي لم يذهب الشيخ مسعود إلى سكينة؟ ولم يحلو السهر لشيخ الغفر إلا في منزل محمود البرادعي؟ ولم يصر على إبعاد دركه عن البلدة، كمل يا حسن. استدار العمدة.

ــ مين الناس دول يا عمدة؟

وقف العمدة كالأراجوز، ما أحلاك وأنت تنظر هكذا يا حرباء!.

ــ دول الغفر وشيخ الغفر. وابني نايب العمدة.

ــ مش يكون أحسن يستتم بره واللا إيه رأيـــك يـــا عمدة؟

هب العمدة. بهبته وقف الجميع.

ــ كلامك أوامر يا سعادة البيه.

مهما حدث لن أبوح بسري لأحد.

ــ كمل اللي حصل يا حسن.

* * *

رغم أننا في الشتاء، وليل الشتاء أسود قـــاتم، إلا أن قمر هذه الليلة كان قمر أربعتاشر، وفي سيره البطيء كـــان يصطدم بسحب صغيرة متناثرة عندئذ كانـــت تبـــدو مـــزق الضوء الصغير وسط هذه السحب، بشكل جميل، كان لونـــه قريبًا إلى الاصفرار، الصمت، هبات النسيم البـــاردة، الجـــو جميل، لا يحلو للحاج منصور العمل في الحقل إلا ليلاً، فـــي الليل يخلو الإنسان إلى نفسه، يعيش معها من الداخل، ليلـــة من التعب والعمل. بدت الحجرات الدافئة، والبيوت المحكمة البناء، النوافذ المغلقة، الأحضان الطريـــة، الأرداف الثقيلـــة، كجنان مستحيلة الوجود على الأرض، عندما تـــذكرت هـــذا

حزنت على نفسي، كانت عيشة جالسة في حجرتها، أرسلت لها تحية المساء فلم ترد عليَّ، يكفيني أن أكون إلى جوارك يا عيشة، ربما تحملين لي نوعًا من الكراهية. قالت ست الـــدار لابن العمدة ونائبه: أبو العيال زمانه راجع حرام عليك. أنـــا أيضًا أكره كل الناس سواك أنت يا عيشة، اعرفوا لي أصلي ونسبي وأنا أحبكم أما بدون هذا فلا شيء لكم عندي ســـوى الكراهية والبغضاء نتبادلهما في صمت، قال لها ابن العمدة: راجل مين أنا بعته البندر، مش ح يرجع إلا آخـــر النهـــار. بودي أن أعرف يا عيشة، أن أعرف الفارس الذي اســـتولى على قلبك. قالت ست الدار وهي تستسلم: يا فضيحتي يـــاني، إنه ليس زهران فأنت لا تحبين سيرته رغم إلحاحه وهو ليس فتحي، فلقد انقطع منذ مدة طويلة عن الحضور إلى هنا، كان يحضر كل يوم، أنا لا أذهب إليه لإحضار كتب ثم أعيـــدها إليه، قالت ست الدار وهي تتجرد من كل ملابسها بصـــوت دغدغته الرغبة فخرج مرعوشاً مبتورًا يطلب الإشباع: بـــس والنبي بسرعة، لست جاهلاً يا ست عيشة أنا أدرك أن بـــين صفحات تلك الكتب أوراقًا منه وإليه، ليتني تعلمت القـــراءة، منك لله يا حاج منصور، والحاج منصور يسير أمامي إلـــى

الحقل، طويلاً، عملاقًا، أنت السبب في كل هذا، قال ابن العمدة: بدا لي الحاج منصور في ضوء القمر الباهت كالقضاء، حسدت بلدتي، أنه رجلك يا بلدي هو الملك وأنت مملكته، أبقاك الله لنا طويلاً، قالت ست الدار والنبي تزودهم ربع جنيه، لم يرد عليها، ارتدت ملابسها في صمت حزين.

* * *

ـ ما كنتش ملاحظ أنه فيه حد ماشي وراكم؟

ـ لأ..

ـ الدنيا كانت منورة؟

ـ لا.

ـ قمر شتوي. كانت ليلة صافية. الجو كان رايق.

ـ كان فيه حد بيشتغل قريب منكم؟

ـ لأ.

ـ متأكد؟

ـ طبعًا.

ـ إيه الدليل؟

ـ أي حاجة بتعمل صوت.

ـــ ممكن تقول اللي عملته في اليوم ده وبالضبط من أول النهار لغاية ما روحت.

ـــ زي كل يوم.

ـــ اشرح.

لا شيء هنا يتغير، أرجوك اشرح يا حسن، استدرت إلى الواقفين خارج دوار العمدة، هل شاهدت هذه الدهشة على كل الوجوه؟ لقد حضروا جميعًا، إن اليوم عيد بالنسبة لهم، حدث شيء لا يحدث كل يوم، حضورهم هنا ليس خوفًا ولا حزنًا ولا حتى محاولة لرؤياك مرتديًا بدلة الضابط التي تخيف كل الناس منا. ولكنها محاولة للاستمتاع بالشيء الجديد الذي يحدث لنا. تكلم يا حسن، ذهبنا إلى الحقل في الصباح الباكر، رجعت الضهر كي آخذ غذائي، ذهبت إلى الحقل مرة أخرى. ساعة المغرب رجعت ومعي البهائم، يحدث هذا كل يوم، نحن لا نعرف الأجازات ولا الأعياد الرسمية، لا نعرف سوى العمل في الحقل، ينادينا منذ الصباح الباكر، لو تأخرت قليلاً في المنزل فصياح الجاموسة التي تطلب البرسيم أو ما يحل محله كفيل بأن يخرجني فورًا من البيت. ليس هذا إخلاصًا مني في العمل يا حضرة. ولا

محاولة لبناء حياتنا الجديدة كما يقول أعضاء الاتحاد الاشتراكي ولكن لأنه لا يوجد هناك ما يمكن أن نقوم به، ليس ثمة عمل آخر، وقاك الله شر الفراغ، أو دعني أقلها بلغتي أنا. شر الصياعة واللكاعة.

* * *

أحضرت معي جنيهين، مبلغ كبير هنا. أعفوني من شرح الطريقة التي حصلت بها على هذا المبلغ، أعمل عند الحاج منصور بأكلي وشربي، لا أشرب عنده سوى المياه البحاري، أما المياه المعين المعتبرة فهي لعمل الشاي ولتغير مياه الجوزة والطبخ. الحاج منصور رجل مزاج، له ليال مشهود بها في تاريخ الضهرية الذي لم يدون بعد، وهو ابن نكتة ولكنه في النهار شخص آخر. لا آخذ من الحاج منصور نقودًا إلا في الأعياد والموالد وهي قليلة العدد. أربعة موالد في السنة وعيدان، أحضرت هذا المبلغ بطريقة ما. سأذهب إلى سكينة الليلة. قالت له ست الدار وهي تداري نفسها ح تديني ربع جنيه بحاله، ستكون ليلة خالدة خلود الحياة كلها. سأحصل عليك وتكونين عارية تمامًا سأمزق أستار الحياة بحثًا عن السر المجهول، سألتصق بك وأطلب من السماء أن

تنزل مخزون المياه، لا يوجد أي شخص يدفع هذا المبلغ الكبير ولكنني سأدفعه، سأفعلها مرة واحدة، لا مانع من حدوث زلازل تحطم بدلتنا كلها. تغوص بالضهرية حتى أعمق أعماق الجحيم، وأنا بين أحضانك الطرية يا سكينة، لنرتفع معًا إلى السماء العاشرة إن كان بعد سمائك السابعة سماء أخرى يا رب، ربما كنت لقيطًا في نظرك ولكن هل لذلك دخل؟ لتكن ليلة سعيدة، لتحترق الضهرية كلها بنار الحقد والكراهية.

مساء الخير يا ست الكل، نظرت إليَّ، كانت تائهة حيرى، لم ترد عليَّ، حاولت أن أتظرف معها، لن يوصلني الحزن إلى شيء ما بالمرة. في الأعماق جرح ينزف باستمرار، ولكن الآن وبين طيات جسد سكينة سأدفن كل شيء، حتى الجراح والأحزان، الأمانة جاهزة يا ستي، لأول مرة تنتبه إليَّ، تبدو كمن أسكره الحزن، دعي الأحزان جانبًا، تسعة وعشرون عامًا مضت من حياتي لا قيمة لها. قيمة الحياة ليست في الذهاب إلى الحقل كل صباح. لم تنظرين إليَّ هكذا يا سكينة.. أمانة إيه يا سي حسن؟ يا دين النبي، يتمنعن وهن الراغبات، قالها سيدي الشيخ مسعود، اقرأ في

عينيك رغبة محمومة. سأشبع هذه الرغبة الليلة، لن نخـــرج من حجرتك السوداء إلا بعد ألف عام، لا بد وأنك ستشعرين بالندم على أنك لم تحصلي على مثل هذه الليلة مـــن قبـــل. اقتربت منها وأنا أتحسس جيبي لأتأكد من وجود المبلغ فيه. الفلوس. قالت كمن يحاول أن يفيق. فلوس إيه؟ لا بـــد مـــن مواصلة الطريق مهما كانت المتاعب، اللي طلبتـــيهم، أنتـــي نسيتي واللا إيه؟ ضحكت. كل شيء فيـــك جميـــل، بشـــرط واحد، أن تعطيني من نفسك هذه الليلة ما أطلبه وإلا فالويـــل لي. الحمارة والجاموسة والبقرة لم يقدمن لي حلاً لمشـــكلتي المزمنة. ربما كان الزواج بحل ولكن أي حـــل وأي زواج؟ هل نسيت أنني..؟ لن أكمل. حكم نهائي بالعـــذاب الأبـــدي، اقتربت منها، قلتي إيه؟ قالت بكلمات ممطوطة: معاك كـــام؟ وصلت إلى أجمل ما في الموضوع، ليل الشتاء طويل، الدماء تغلي في عروقي، عندما نام ابن العمدة مـــع ســـت الـــدار، تحسست لحمه الطري وقالت في دلال: ليل الشـــتا طويـــل، سأحضر لك بعد ذلك كل ما تطلبينه، سأبيع نفسي في ســـوق الثلاثاء، كي أبقى معك يا أجمل امرأة، قلت بفـــرح: اثنـــين جنيه، مرت لحظة، طالت أكثر من اللازم، بس؟ أصـــابتني

خية أمل، همه دول شوية؟ قالت: كملهم خمسة، كويس، ضحكت وهي تقلدني، وعلى سنة الله ورسوله، قلت بدون وعي: والمؤمنين، آمين، حتى سكينة أصبحت غالية، لو عرفت كيف أحضرت هذا المبلغ يا سكينة لأعطيتني كل ما أطلب، ألا يكفي أنني أعصي المنتقم الجبار؟ ولكن لم أحكم على نفسي، بعض الناس شاهدوا الشيخ مسعود خارجًا من عندها، منك لله يا سكينة، قالت ببلاهة: أمال يعني مني لك، واللا لحضرة العمدة؟ استمرت في ضحكتها العابثة، واللا منى للحاج منصور أبو الليل، استمرت تضحك حتى تقيأت، كم كرهتها في هذه اللحظة، الحاج منصور أبو عيشة، استلقت من كثرة الضحك والقيء، جلست بجوارها، أنتفض من الرغبة، عندما أفاقت أدخلتها إلى غرفتها، أدخل هذه الحجرة للمرة الأولى الليلة، لا تحدقي فيّ هكذا أيتها الجدران، عما قريب سأكون من أهل البيت، تحت سمعك وبصرك ستحدث الأعاجيب، المهم الآن أن أجد مكانًا أضع فيه هذه النقود بعيدًا عن منزل الحاج منصور أبو الليل، خرجت إلى الحقل.

ها تولى ناي بكر.

ـــ رحت معاه عند الساقية الأول، وبعـــدين نزلـــت الغيط وسبته هناك.

ومخبي الهوا جواه.

ـــ ما كانش فيه حد خالص؟

كانت ليلة جميلة، لم أجد معي ما أدفعه نقطة للغازية التي كانت ترقص.

ـــ لأ..

وضع زهران جنيهًا كاملاً على جبينها، احتكت بـــه أكثر من مرة:

ـــ متأكد؟

ـــ طبعًا.

لا بد وأنه أخذ منها موعدًا، بطنهـــا يهتـــز بطريقـــة مثيرة، لم أعرف طعم المرأة حتى الآن.

ـــ فتشت المكان.

في البندر نساء أحلى منها، شاهدتهن عندما ذهبـــت إلى دمنهور كي أوصل بعض الأشياء لحامد.

ـــ متأكد ليه؟

زعق الوابور ع السفر، عيطت رايحين فين؟

ــ اللي ح يكون عند الساقية ح يعمل إيه؟

إنها تجلس على حجر ابن العمدة، ستكملان الجولة معًا في الحجرة الموجودة خلف الدوار.

ــ ما تتهمش حد بقتله؟

ظلت على حجره مدة طويلة، حتى الغازية لم تنس أنك ابن عمدة.

ــ ما سمعتش منه إنه كان خايف من أي حد؟

اقتربي مني، وضعت النقود في مكان بعيد جدًا.

ــ ما كنش فيه حد يقدر يخوفه في الدنيا كلها.

رايحين تغيبوا سنة، واللا تغيبوا اتنين.

ابتسامات السخرية والشماتة تعود إلى وجوهكم، سأعرف كيف أربيكم. ولكن صبرًا، ألم تسمع أي فرد يهدده في الأيام الأخيرة. لا، ألم تشم رائحة خلاف بينه وبين أي شخص في البلدة، لا.

ــ إيه حقيقة علاقته بسكينة؟

انزعجت، وما دخل سكينة في هذا، أنا أحب التراب الذي يمشي عليه الحاج منصور ولكن الحي أبقى من الميت، من يمت لي له عندنا إلا أن نطلب له الرحمة كلما زرنا

المقابر، ثم إن هناك اتفاقًا بيني وبين سكينة على ليلة لن تحسب من العمر يوم القيامة.

ـ ما أعرفش.

لا تعرف؟ ما أعرفش، لازم تعرف؟ ما أعرفش، أعرف إزاي؟ كنت معه بصفة مستمرة، كنت أقرب الناس إليه، لم أكن سوى نفر عنده، هذه الأمور لم يكن لي فيها أي تدخل. قال وهو يستدير، كمن يود أن ينهي حديثًا ما: على العموم سكينة اعترفت بكل حاجة، كلامك مش مهم، بأي شيء اعترفت لك؟ هل كان بينها وبين الحاج منصور أي شيء؟ مستحيل، إن الحاجة طمان كانت يقظى، إنها مثل عود الذرة الجاف، ولكنها لم تكن تسمح بحدوث مثل هذه الأمور، ما هو سر علاقتك بسكينة؟ رغم الانزعاج البادي على وجهي فلقد سررت في أعماقي، جميل جدًا أن أبدو أمام نساء القرية كرجل له علاقات كثيرة. عيشة للقلب وسكينة لرغبات الجسد ونزوات الجزء الثاني والأخير من الليل. ما هو سر علاقتك بسكينة؟ أنا؟ كفى استعباطًا يا حسن، هل لي علاقة بسكينة؟ شاهدك بعض الناس تجلس معها، كان الحديث أقرب إلى الهمس، جميل يا حضرة الضابط، تعالي يا عيشة

لتسمعي، لتعرفي أخيرًا أن حسن الأعرج الذي لــم تكــوني تجودين عليه حتى بكلمة واحدة كانت له علاقات أخرى.

ــ في مرة ثانية قعدت معاها، طالت الجلســة، بعــد كده دخلت معاها جوه البيت، بالتحديد لغاية أودة نومها، وما طلعتش إلا تاني يوم الصبح. أكمل صوت مشروخ:

ــ بعد ما طلعت اندلقت مية حما في الحارة.

ارتفعت بعض الضحكات، لو كان هذا قد حدث لكنت فخورًا به الآن كل الفخر ولأعترفت لكم بكل شيء.

ــ حصل؟

ــ وحصل إن كان فيه سوء تفاهم بين سكينة والحاج منصور؟

ــ ما أعرفش.

* * *

خرجت خلف الحاج منصور أبو الليل، خلفي تســير البقرة والجاموسة، فوق كتفي فأس، في يدي الأخرى منــديل به شاي وسكر وبعض الأكل، عندما كنت خارجًا من الــدار ألقيت على عيشة تحية المساء، لم ترد إلا بنظــرة صــامتة. كان عليَّ أن أخرج بسرعة، توقفت أمامها، معذرة يا عيشة،

الحاج منصور أبو الليل يسير أمامي، عملاقًا ضـــخمًا، مــن سماك أبو الليل ما أخطأ في هذا، اسم على مسمى، أنـــت لا تخف حتى الليل نفسه، الكل يخاف منك، ولكنـــك لا تخـــاف أحدًا، أشاعوا أنك ذهبت إلى سكينة، لا أصدق هذا الكلام يـــا حاج. أنا أؤمن بك إلى أبعد الحدود. ستروي الأرض الليلـــة. صدقني يا سيدي أن الذي يروي الأرض ظمآن، في حاجـــة إلى من يرويه، يكفيني أن أبقى بجوارك يا عيشة، سأظل إلى جوارك حتى تتزوجي شخصًا آخر المحصول السنة دي إزيه يا حسن؟ أسرعت كي ألحق به الجاموسة والبقرة لا تعترفان بمثل هذه الأمور. اضطررت إلى أن أرفع صوتي: كـــويس خالص. قال في فرح: يعني زي السنة اللي فاتـــت؟ قلـــت: وأحسن والله العظيم، صمت لحظة، نظر إلى الحقل في ضوء القمر الساجي، كأنما ليختبر صدق كلامي: يبقى لك الحـــلاوة يا عم. قلت كمن يود أن يطيل الحديث: أديك بتقول كده كـــل سنة، القمر ينتحب في صمت، قصدك إيه يا حسن، قلـــت: لا ولا قصدي ولا حاجة، ما أنت عارف. القمر يبصـــق نـــوره الباهت على كل شيء. توقف، استدار إليَّ: يا ابني فلوســـك معايا. قلت بفرح: صحيح يا با الحاج؟ صمت، لم يرد، أكمل

حديثه بعد برهة وكأنه لم يسمع تساؤلي هذا، أنــت راجــل ومحتاج للجواز، بعد جني المحصول اختار بنــت الحــلال وشوف أنا ح أعمل لك إيه. لقد كبرت، أمثالي معهــم أولاد عمر أكبرهم عشر سنوات. ما كان يجب أن أنتظر كل هــذه الفترة الطويلة. ولكني بلا جذور. لعنة الله علــى الجــذور، خلاص يا عم، قالها وقد وضع يده على كتفي في حنو، ربما كنت والدي حقيقة. وهكذا تضعنا الحياة في مثل هذا الموقف، كي نحصل على شيء ما لا بد وأن نتنازل في نفس الوقــت عن الشيء الآخر، وجودك معي هو العزاء الوحيد في هــذه الليلة الباردة. ربنا يخليك يا با الحاج ويطول عمــرك ميــت سنة، لأول مرة أهوي على يديه أقبلهما بمثل هذه العاطفة. لم أكن منافقاً فيما مضى ولكني كنت أمارسها بحكــم العــادة. أدعو لك من كل أعماق القلب بطول العمر يا حبيبــي. قــال لي: ما تخافش عمر الشقي بقى. وعلى العموم الفلوس مــع الحاجة طمان لو حصل أي حاجة، ضاع القمر وسط سحاب أسود داكن. عوى ذئب، نبح كلب، انقبض صدري، لــم أرد عليه. كانت إحدى مداعباته الجميلة، معذرة يا والدي الحــاج إن كنت قد ذكرتك بهذه الأمور.

* * *

ـــ ساعة ما اتقتل ما سمعتش أي استغاثة؟

لا، لا أستطيع، لن أبوح بالسر.

ـــ لأ.

بيني وبين العفريت عهد مبرم، لا بد من أن أحترم هذا العهد، الحياة أمنية.

ما سمعتش أي صوت؟

ـــ لأ.

في عيني عيشة ضراعة وتوسل، وبحث فاشل عن غرام قديم. لا أستطيع.

ـــ ما صدرتش أي صرخة؟

ـــ لا.

عندما تصبح التضحية بالحياة هي المخرج الوحيد، فلن يكون ذلك إلا لعيشة. قال الضابط: أنت كذاب، صرخت من أعماق اليأس: لأ يا أفندم، قال في يأس: إن لم تقل لي على القاتل الفعلي.. مرت فترة صمت. أنت قاتل الوحيد في هذه الحالة.

الحياة لم تعطني أي شيء حتى الآن. لم أعشها. لا أريد الموت. أريد الحياة. أريد الحياة.

* * *

قام الرجل يعمل الشاي بنفسه، أحضره لي أمام الميه. كم أنت متواضع يا سيد الرجال، بدأت علاقتي بك هذه الليلة. ارتبط مصيري بك، أنت بالنسبة لي كل شيء، الأمل والرجاء، تهون الحياة في سبيلك، إن مواصلة الحياة بدونك أمر مستحيل، كنت مخطئًا عندما فكرت في الرحيل عن البلدة، لا قيمة للحياة إلا معك، في منتصف الليل تناولنا عشاءنا، قلت لنفسي وأنا أمسح فمي بيدي وأشرب من مياه القناة، جميل أن نصفو نفوس البشر، خرج القمر من تحت السحب، فك الظلام حصاره الأبدي حول كل شيء.

ـ أنا ألقي عليك القبض بتهمة قتل الحاج منصور أبو الليل مع سبق الإصرار.

ـ مظلوم والله العظيم.

ـ خذه يا عسكري.

ـ مظلوم يا حضرة الضابط.

* * *

حجرة السجن صغيرة، زهران الرفاعي في الحجرة المجاورة، على الرغم مما كان بيني وبينه فإنه عندما تقابلنا بالفناء الخارجي صباح أمس حياني بود، عزم عليَّ بسيجارة، إنه إنسان على الرغم من كل شيء، مهما حاول الضابط فذلك هو سري، سأحتفظ به إلى الأبد، قتل الحاج منصور أبو الليل وضاع كل شيء، لا أعرف كيف سأخرج إلى الحياة بعد ذلك. عندما اتهمني الضابط بقتله سخرت من كل شيء، من كان يجرؤ حتى على النظر إليه؟ ربما كنت الوحيد الذي أعرف السر، مشكلتي أنني حريص على الحياة. لم أدخل دنيا بعد، ما زلت في صدر الشباب، لو حضرت عيشة إلى هنا لضعفت أمامها، زهران، ما دخله؟ عندما هدد الحاج منصور لم يكن يعي كلماته، كان يدرك كما يدرك الجميع أنه لا يقدر على تنفيذ هذا الوعيد، هذا حظه، عندما رآني زهران للمرة الثانية قبلني في حب، في الشدائد تعرف المعدن الحقيقي لكل إنسان.

* * *

روح شوف أنت ابن مين، وبعدين تعالى اتكلم معايا؟!. تبعت هذه الكلمات ضحكات سخرية كظمت غيظي،

استمرارهم في الضحك والسخرية جعلني أكور لهم قبضتي وأهددهم، ازدادت سخريتهم مني: أنا ابن الحاج منصور أبو الليل سيد البلد كلها.

قال أحدهم ضاحكًا:

ـ وأمك تبقى مين؟

ـ رد إن كنت شاطر.

ليس عيبًا في أنني لا أعرف والدي. ليست ميزة في أحدكم أنكت تعرفون بيوتًا لكم وأهلاً تعيشون معهم، أفضل شيء هو الانسحاب، حكم عليَّ بهذا، لن أستطيع أن أغير من هذا الحكم شيئًا، كان من المفروض أن تعترف بأنني ابنك قبل أن تموت يا حاج منصور ولو حتى بالكذب. لم يكن يجب أن تتركني هكذا عرضة لكل كلب، لم يكن ذلك سيكلفك كثيرًا، لم تركتني إذا؟ الحاجة طمان لا تقبل وجودي بالمنزل، الأستاذ حامد لن يهتم بشئون الرعية، إنه في عالم آخر، موقف عيشة مني واضح، لم يكن هناك سواك، كانوا يخشونك، من لي الآن؟ لست ضعيفًا إلى هذا الحد، تعلمت منك الشجاعة وأمورًا أخرى لا تسر البال، ماذا أقول لهم عندما يوجهون إليَّ السؤال الخالد. وحتى لو كنت أنت والدي

من هي أمي؟ لماذا بكرت بالرحيل؟ ألم تفكر في أنك ستترك إنساناً مقطوع الجذور؟ لقد كنت كل شيء. لن أعــود إلـــى الضهرية، لا حياة لي فيها بدونك، لو كان بيدي لدفعت حياتي ثمناً لإنقاذ حياتك، الكلاب والديدان تحركــت بعــد موتــك. أخرجوا ثمناً لإنقاذ حياتك، الكلاب والديدان تحركــت بعــد موتك، أخرجوا ألسنتهم لي،أين كنتم قبل الآن؟. لوحت لهــم بقبضتي، قبضة خائفة وجلة، سخروا مني، يعرفــون أننـــي خائف منهم، أنا خائف بالفعل، بعد قليل سيوجهون لي السؤال الخالد، خلود الحياة. قلت قبل أن تموت بلحظات عمر الشقي بقي، سخرت مني عندما دعوت لك بطول العمر، لــم تكــن تدرك أنك ستموت في هذه الليلة.

ــ ألف رحمة من الله تنزل عليك يا سيد الرجال.

* * *

طلبني حضرة الضابط أكثر من مرة، يعتقد أن لـــي دخلاً في الموضوع. لو كان القاتل إنساناً لقلت لــك عليــه. بودي أن أحكي لك ما حدث، كل يوم لا يوجد عندك ســوى نفس الأسئلة. لا يوجد من يعرف حكايتي ســوى زهــران، يعاملني باحترام، الكل هنا يعرف أنني شخص مهــم. كلمــة

واحدة مني ستحيل القضية إلى شيء واضح. حضر الأستاذ حامد، لم يسأل عني، لم يبادلني كلمة واحدة. رمى لي بعض النقود وانصرف، لم أقرأ نظراته. كنت أتمنى أن يقول لي أي شيء. ربما شك البعض أنني القاتل. هذه النقود من عيشة، هي التي طلبت منك وألحت عليك في الطلب أن تحضرها لي، شكرًا لك يا عيشة. لست في حاجة إلى النقود. الحياة هنا أكثر راحة. وأوحشتني كثيرًا، لا شيء ينتظرني في البلد سوى الشماتة والتشفي، رغم هذا أود أن أعود بأسرع وقت، لو حكيت له حكاية العفريت لرحلني فورًا إلى مستشفى المجاذيب. قد أثبت له بعد ذلك أنني عاقل حتى أنت يا سكينة لم تأتي، إليَّ ولا حتى مرة واحدة. حضرت إلى زهران من ورائي، الجنيهان أصبحا خمسة جنيهات كاملة، نفس المبلغ المطلوب. بمجرد خروجي من هنا سأحضر إليك. كان الحاج منصور أبو الليل هو المانع الوحيد بيني وبينك. ذهب الرجل العظيم. لن يكون هناك مانع، على سنة الله ورسوله والمؤمنين، تمامًا كما طلبت مني، جازاك الله كل خير يا حاج منصور. كلمة واحدة منك كانت كفيلة بأن تجنبني هذا المصير، لا فائدة من كل هذا الآن، ما مضى قد مضى، لابد

وأن أواجه حياتي كرجل. لا بد من الشجاعة فالشامتون أكثر من أن يحصيهم العد.

إلحقني يا حسن، بسرعة يا ولد، كنت في وسط الحقل، كان الليل يئن أنينًا مكتومًا كصوت الضائعين، نور القمر الشاحب وقد تداخل مع ضوء الصباح الوليد، غير معقول أن يستغيث الحاج منصور. ذكرني نور القمر الأصفر بوجه المصدور، العائد بعد أن رفضته المستشفيات الأميرية. إلحقني يا حسن، يا خلق هوه، أسرعت إلى الساقية، لو تركت المياه لغرقت الأرض، ولذهب هذا العام أيضًا ولا بد من انتظار محصول العام القادم. من يدري كيف ستكون الأمور بعد ذلك؟ علم هذا عند ربي. ويقولون إنه أشجع رجل في الناحية كلها. صوت إنسان يموت. ويحكون أنه ملك وإن ناحيتنا هي مملكته، الحاج منصور أبو الليل ملقى على الأرض، هو كل شيء في هذه الناحية، لسانه خارج من فمه، عيناه جاحظتان، لا بد وأنه مات بالفعل، كيف حدث هذا؟ شيء آخر مهول. قدمان من الحديد. شخص طويل جدًا. تبدأ قدماه من الأرض وتنتهي عند أول السماء، يزداد طولاً وعرضًا، لا بد وأن هذا هو الفاعل، من هو؟ لست أدري

بالطبع. اقترب مني، هيه ماذا تقول؟ يداه من الحديد، طويل، طويل، ويقولون: إن الحاج منصور لم يولد بعد تسعة أشـــهر حمل فقط، وأنه نزل يتكلم. وأنه لم يــأت إلـــى الـــدنيا مـــن الخلف،وأنه، وأنه. وقعت على الأرض من شـــدة الخـــوف، أصبحت بجوار الحاج منصور. يقصر مرة أخرى، يتحـــول إلى شيء في مثل طول الإنسان كيف حدث هذا؟ متـــى؟ يـــا أرحم الراحمين أين رحمتك؟ لم أدرك شيئًا محددًا بعد هذا.

* * *

دفنوا الحاج منصور. لم يقيموا له مأتمًا، كم فعلـــت لأهل هذه البلدة، لو قدر لك أن تعرف موقفهم منك بعد موتك لرأيت بنفسك فصلاً من أطول فصول النفاق، مبك ومضحك في نفس الوقت. ليه موش عايز تعترف يا حسن؟ هزني هذا الصوت. سمعته من قبل كثيرًا. أحبه. أنا سكينة يـــا حســـن، نظرت إليَّ بعطف بالغ. هانت أيها الزمان تجود علـــيَّ بمـــا أطلب. ولكن بعد أن انتهت، مقابل هذا السر يضيع كل شيء حتى الحياة نفسها. أخيرًا جسد سكينة ملاصقًا لجسدي وفـــي حجرة واحدة. اتكلم يا حسن. ماذا سأقول؟ ضاعت الكلمات. قالت وقد احتضنتني: قول ع اللي قتل؟ لا. لا أستطيع، يعني

عاجبك رميتك في السجن دي. قالت هذه الكلمات، مالت عليَّ. أوضحي عما بداخلك من الذي أحضرك؟ أم حضرت بنفسك؟ ضحكت في أنوثة:

ـ يعني مش عارف، هو أنا لازم أتكلم يا سي حسن؟

مستحيل أن يحدث هذا. ما هي مصلحتها في أن أعترف أو لا. مين اللي قتله؟ لا، لا أستطيع، حد من طرف العمدة. لن أبوح بسري. زهران. لا. لن أقول حرفًا واحدًا. زهران أليس حبيب القلب؟

ـ والنبي ما أنت عارف حاجة. بعدين أقول لك.

مرت لحظة صمت، وراء حضورك هذا أمر ما. في الجو رائحة خيانة. رغم هذا أود أن تبقي هنا، السخونة التي تنبعث من جسدك الطري، أدفأت جسدي. قلت إيه؟

نفيدكم بأن تركة الحاج منصور ستوزع بين أبنائه الثلاثة.

سرحان في إيه يا حسن؟

وهم حامد أبو الليل. وعيشة، وحسن منصور أبو الليل وذلك في تمام الساعة.

صاحت سكينة. أنت فين يا حسن؟ اكشفي عن وجهك يا حرباء، هل هذه حكمة أن يجتمع النقيضان، جمالها العظيم، جسدها اللدن، وما فيها من صفات الغدر والخيانة؟ دا أنت مش هنا خالص يا حسن. بودي لو أتخلص من هذا السر. وليكن ما يكون. أحب الحياة. أحبها إلى درجة الجنون، السر الذي أحمله قضى على حياتي، قالت في تثاقل: خليتك بعافية. تعمدت أن تريني فخذيها وهي تقف، مالت عليَّ، قبلتي، في قبلتها بقايا شباب ولى منذ زمن طويل. أجدني مشدودًا إليك رغم حبي لعيشة، سارت نحو الباب في تثاقل متعمد، أنت غالية والطلب رخيص، وكل شيء في بلدي رخيص، إلا حبي لعيشة وكل رخيص في بلدي موجود، وستوزع التركة علانية. وسكينة غالية. ولكني سأصير أحد الأغنياء.

* * *

حجرتي بمنزل الحاج منصور كما هي، ملابسي وأشياء نقلت من مكانها، الحجرة مظلمة ورطبة، كيف قضيت بها السنوات التي مضت من العمر، على كل حال هي مكان يحميني من نظرات المتطفلين ومن كلمات الشماتة والتشفي، حضرت عيشة إلى هنا. الحاجة طمان لن تدخل

عندي مهما حدث، الأستاذ حامد مشغول بشئونه أو ربما بأحزانه عن كل الناس. حاولت عيشة أن تنفرد بي، كنت أتهرب منها، واجهتني بنظراتها الحادة والجميلة. تهربت منها، لو عرفت السر ما ألحت عليَّ، فيك وفاء طبيعي لوالدك هل يرضيك أن أدفع حياتي ثمنًا لهذا، لا يمكن أن يرضيك أن تكون الحياة هي الثمن، ليتهم ما أخرجوني من السجن، كنت مستريحًا هناك.

* * *

ما فيش ولا دليل ضد أي حد فيهم، الحاج منصور أبو الليل أصبح مجرد ذكرى، كلمات تلوكها أفواه متعبة مع طعام بسيط في الجزء الأول من الليل، هات المسجون حسن منصور أبو الليل، ليست هذه المرة الأولى. لن تكون الأخيرة، ماذا تريدون؟ ألقوا القبض على أحد العفاريت وسأعترف لكم بكل شيء، أريد أن أطمئن على حياتي، أفرجنا عنك يا سيدي، لم أع كلامه، تعودت السجن بصفة نهائية، عايزين واحد يضمنك ومن يضمن لي الحياة، أو حتى من يضمن الممات، وأنا أضمنه برقبتي، من؟ زهران، أنت شهم، نظرت إليه، أدرت وجهي إلى الناحية الأخرى من

الخجل، أنت عظيم يا زهران. إحنا أخوات، عيب الكــلام دا يا حسن.

* * *

لا، لن أستطيع، الحجرة مظلمة ليل نهــار. أرســلت سكينة تطلبني أكثر من مرة، لن أذهــب إليهــا، إلا بعــد أن أحضر المبلغ المتفق عليه من الحقل، لن أذهب بدونــه، مــا قيمة كل ما يحدث، بل ما قيمة الحياة نفسها في هذه الحجــرة المظلمة. سيظل هذا السر يعذبني حتى أموت. أود أن أحصل على كل ما أطلبه، ثم أموت بعد هذا. لن أستطيع مواصــلة الحياة، وكل يوم يحمل لي آلامًا جديدة، الليل رحلة طويلة مع المجهول، السيقان الحديدية، تهديد العفريت، النهار عذاب مع العيون الجاحظة واللسان المدلى والرجل المسجي على مدار الساقية.

* * *

لا، لن أستطيع، أرسلت سكينة للمرة الثالثة. لا بد من الذهاب إليها، سأذهب إلى الحقل أولاً كي أحضر المبلغ، لتكن ليلة سوداء أهرب فيها من الحاج منصور والعــذاب الــذي أحمله على كتفي، في أثناء خروجي شاهدت عيشــة، كانــت

جالسة. سوداء وحزينة، حتى نور المصباح كان حزينًا، شاحبًا عليلاً، وقفت لم أتحرك، نظرت إليَّ طويلاً، لم أعرف أصلي، ولكني أحبك. أنت الشيء الوحيد الباقي من المرحوم، حكيت لها كل شيء، أنا في حيرة من أمري، حكمت على نفسي بالموت الأكيد. عيشة لم تصدقني، لم تزدها حكايتي إلا حيرة فوق حيرتها. ضعفت بمجرد أن شاهدتها، خرجت بعد ذلك أسير على غير هدى.

* * *

تعال يا حسن، سكينة تنادي عليَّ. سأحضر المبلغ، سأعود لك بعد قليل، اليوم هو آخر أيام العمر، رايح فين يا حسن؟ لا بد من أن أسرع، شوية وجاي، الحياة عذاب، الوصال عذاب عايزاك دلوقت يا حسن، عجزت تمامًا يا سكينة، ضياع جديد يضاف إلى ضياع الأصل.

ــ فركة كعب.

ــ رايح فين؟

ــ لغاية نهو.

تركتها وقد ظهرت على وجهها الشاحب بوادر خيبة الأمل، أنا منتظراك، كل شيء يضيع ويتلاشى، خمس دقائق،

تذكرت أنني بلا أم وبلا أب فحزنت علـــى نفســـي وعلـــى حياتي، أوعى تغيب، تذكرت أن الحاج منصور أبـــو الليـــل مات بالأمس القريب مقتولاً، وأن الحياة لا بـــد وأن تنتهـــي بالموت. وأن عيشة حزينة، حزناً صامتًا لا يعلن عن نفســـه بالبكاء والصياح، وأن كل شيء قد تصدع مثل جدار جـــامع سيدنا تاج الدين، وتذكرت أن سكينة قد شاخت فجأة، فحزنت على نفسي وعلى كل شيء، ليتك قد أمسكت بي يا ســـكينة، الليل مظلم، لا شيء سوى الرياح، الظلام، حبـــات المطـــر، لابد وأن أحضر المبلغ، جسد المرأة جميل في الشتاء جـــدًا، ربما ساورني بعض الخوف، عليَّ أن أتقدم نحو الساقية.

بعد التحية، مقدمه لسيادتكم ابنكم حســـن، أرجـــو أن تعترف بأنني ابنك، المبلغ هناك، إذا كان والدك هو الحـــاج منصور فمن هي أمك؟ عرفت عيشة الســـر الـــذي عـــذبني طويلاً، ستقسم التركة بين أولاده الثلاثة، ثالثهم حسن منصور أبو الليل، من الغد لا بد وأن أنتظر قضائي المحتوم، مـــدت ست الدار يدها بالربع جنيه إلى زوجها، دا ثمن البيض بعناه النهارده. سأعيش هذه الليلة بـــالطول والعـــرض والعمـــق والارتفاع، المبلغ جاهز يا سكينة. الحقني يا حسن، يا خلـــق

هوه، لا تنامي يا بلدي، انتظريني يا سـكينة حتـى أعـود، تحسست سكينة جسد حسن أبو الليل الطري، قالت له: كانت فين الكنوز دي كلها؟ قال لها: ما كنتش فاضي خالص. قالت له عيشة بدلال: وأنت مالك؟ ضمنه زهران في المركز، قبلته سكينة في حجرة السجن، لم يكن معـي نقـوط للغازيـة، لا تناموا يا أهل البلد. تلك آخر أيام العمر الشقي، قالت سـكينة على سنة الله ورسوله، قلت لها بفرح: والمؤمنين. آمين، عما قريب إلى جوارك يا أعز حبيب.

* * *

ليرحمنا من بيده كل شيء.

ـ أنا حسن الأعرج. حسن منصور أبو الليل.

الحزن

الحزن

عيشة، يا خفق الفؤاد يا عيشة،

عيشة، يا نور العين يا عيشة.

* * *

ليست هذه المرة الأولى، التي أدخل فيهـــا للســـجن، دخلته من قبل أكثر من مرة، ابتداء من غرفة الحجز بـــدوار عمدة الضهرية حتى سجن مصر مـــزورًا بنقطـــة بـــوليس التوفيقية وسجن مركز إيتاي البـــارود، وســـجن المديريـــة، مرحى بليالي الهناء. عما قريب سأعرف الطريق إلى قلبك. سنعقد معًا أعذب الصفقات، مع يعذبك لا بد وأنه الحنين إلى امرأة، أو فتاة بكر، فزوجتك التي منحتك خمسة من الذكور، وأربع بنات كالبدور قد ترهلت، تاهت معالم الجســـد فيهـــا، ربما الحاجة إلى سيجارة منتفخة. سأصل إليك عما قريـــب، سأدعك تسوي على نار هادئة. حكم أبدي لا بد من تنفيذه. لا بد وأن أظل على الجدار الخارجي لبلدتي كالنبت الشيطاني، كالطحلب الذي لا أساس له، لا أحد يحبني وإن كـــان الكـــل يخاف مني. لا بد وأن أظل هكذا في العراء، في حاجة إلى

نسمة دافئة. إلى كلمة حب، أنا هنا إنسان مسكين في حاجـــة إلى أي شيء صادق وسط الزيف الذي أصبح فيه، ارحمنـــي هذه المرة يا سيادة القاضي، قتلته بحثًا عن النقود، عن لقمـــة العيش، أنتم ميزان العدل، اطلب رحمتكم، أنـــا مظلـــوم، إن حكمتم عليَّ بالسجن المؤبد فدلوني من أين يعـــيش القـــواد، وكيف تحيا البغي وبأي الطرق يبحث تاجر المخدرات عـــن رزقه؟ كلها كام سنة وتطلع في العفو. نظرت إليه باحتقـــار، محام كبير ومشهور، رد إليَّ نقودي، أتـــت بطريـــق غيـــر مشروع، أنا قذر في نظركم، لماذا أخذت نقودي؟ هـــو أنـــا حاستنى العفو لسة؟ ممكن تدفع وتعمل استئناف، قلت بحماس الذي يود أن يعجل بالانتقام العظيم: أدفع من جنيه لألف. عما قريب سأخرج لكم، الويل لكم، من زهران الرفاعي، تلك هي إرادة الله، النار لا تخلف بعـــدها إلا الرمـــاد، الشـــيخ عبـــد الحسيب الرفاعي، مأذون البلد وأكثر أهلها صلاحًا وتقـــوى، ينجب هذا المجرم زهران، كيف هذا يا رب؟ لا بد وأن لـــك حكمة في ذلك، شيخ ينجب مجرمًا، قالوا لي بحســـرة لـــم لا تؤمن نصف إيمان أبيك؟ رضي الله عنه وأرضاه؟ قلت لهـــم ليس من المهم أن أكون مؤمنًا أو كافرًا، ولكن المهـــم بـــأي

شيء أؤمن، وقعت في عرضكم، أنقذوني يرحمكم الله، مصمصت الشفاه، تحركت الذقون في رفض لما أقول، استعاذوا بالله، طلبوا لي الرحمة، والشفاء مما أصابني لست مجنوناً، أنا فقط، زهران ابن عبد الحسيب الرفاعي.

لا تحاول أن تخيفني يا حضرة الصول، وقفت أمام أمثالك ألف مرة، أنت تعرف عني كل شيء، تعرف أن اسمي زهران عبد الحسيب الرفاعي، ربما دعاك والدي، رضي الله عنه وأرضاه، ذات مرة في إحدى لياليه الجميلة، كي تأكل مما آتاه الله، وتعرف ماضي عمري وأحلامي، ومشروعات المستقبل نحن في فصل الشتاء وهو موسم عمل بالنسبة لي، لا تعطلني أكثر من ذلك. دعك من كل هذه الميول الاستعراضية، كل أهل البلد يخافون منك حتى لو لم تقم بكل هذا، أنت تعتقد في أعماقك الخاوية أنني قاتل الحاج منصور أبو الليل. أقسم لك ما حدث ذلك. ولو حدث لقتلته ولفقت الجريمة لشخص آخر كما حدث كل مرة. لا يمكن أن تمتد يدي إليه بسبب عيشة فهي بالنسبة لي كل شيء. سكينة تمنحني كل شيء بسخاء وبدون مقابل، ولكن ما أطلبه هو

أنت يا عيشة، ربما كان هذا غريبًا، ولكنه يحدث، قد تكـــون سكينة هي الطريق إليك يا عيشة بعد أن فشلت كل الجهود.

* * *

لن أذهب بعيدًا عنك يا عيشة مهما كانت الظروف.

ـــ إيه علاقتك بالحاج منصور أبو الليل يا زهران؟

قلت باستهانة:

ـــ واحد من أعيان البلد الكبار..

قال بتحد مبطن بالخوف والخواء:

ـــ قصدي العلاقة على أساس تاني.

ضحكت بسخرية:

ـــ أساس إيه؟

قال بخوف فيه شجاعة الجبناء:

ـــ كافية عبث يا زهران.

لم أرد عليه، أفصح عما عندك يا حضرة الضـــابط، كن صريحًا وابعد عن اللف والدوران.

ـــ كان فيه شيء بينك وبين الحـــاج منصـــور قبـــل موته؟

ـــ فعلاً.

ـــ بالتحديد أنت طلبت إيد بنته عيشة؟

ـــ عمل مشروع.

ـــ أنا مش بناقش مشروعية العمل، أنا با سأل حصل ولا لأ؟

ـــ حصل.

ـــ إمتى؟

ـــ مش فاكر.

ـــ بالتحديد؟

ـــ دا شغلكم. أنتم أعلم.

ـــ كمل.

ـــ الحكاية مش عايزة كمالة. رفض.

ـــ ليه؟

ـــ هو حر.

ـــ حصل إيه بعد كدا؟

ـــ هددته.

ـــ هددته بإيه؟

ـــ بأن ما حدش حياخد عيشة غيري.

ـــ يعني هددته؟

ـــ لأ.

ـــ أنت راجل موش جبان.

ـــ هددت اللي ح ياخد عيشة. التهديد ما كانش ليه.

لا تملك دليلاً واحدًا ضدي، لماذا تتعب نفسك، أحب عيشة. لا يمكن أن أقتل الحاج منصور حتى لا أغضبها. ما زلت حتى الآن أنتظرها رغم قتل والدها، الأمل معلق عليها، عيشة ليست الحب فقط، إنها بالنسبة لي الأمل والمستقبل والرجاء.

* * *

الليل مملكتي، النهار عدوي اللدود، الظلام محنة لكل الناس إلا أنا، أنه المناخ الملائم لي، أره ليالي الصيف المقمرة، أحب ليالي الشتاء العاصف، تلك التي تهب رياحها وتسقط أمطارها لدرجة الجنون، أكره الأرض الخالية، أحب موسم الذرة. أمارس فيه عملي بصورة منتظمة، اللهم اجعل كل أيامنا شتاء، وكل مزروعاتنا ذرة صيفي وشتوي، ونيلي، ولكن هل يرضى معاون الزراعة بذلك؟

* * *

سلمت عليه باحترام قبلت يده. قبلته أيضًـــا، كانـــت رغبتي هذه المرة صادقة بل نابعة من أعماق القلب. الحيـــرة قذفت بي إليك هذه المرة يا والدي فكن لي بر الأمـــان. أنـــا تبت خلاص. قال أحدهم: بعد إيه؟ هو الشيء بعد ما ينشرخ يتصلح. لست في حاجة إلى كلماتكم يا أهل الســـوء. كلمـــة واحدة منه هو، أريده أن يقبلني في بيته، تكلم أخيرًا، قلبـــي وربي غضبانين عليك. صحت فيه مقاطعًا: حرام عليك. ليه كدا؟ أكمل حديثه: إلى يوم الموقف العظيم. قلت له برجاء: دا كان طيش شباب يا با. لم يرد عليَّ. راح يهمهم بكلمات لـــم أفهم معناها. قد تكون دعاء عليَّ بأن أذهـــب إلـــى الـــدرك الأسفل من النار. أو ربما كان يستعين بأحد الشياطين علـــيَّ. قلت له بعد فترة. أنت نسيت أن ربنا هو الغفور الرحيم؟ قال بسرعة كمن كان يعد الجواب: وهو المنتقم الجبار في نفـــس الوقت. تساءلت بحزن: القرآن ما فيهش حاجة عـــن توبـــة المؤمن؟ قال بحدة: المؤمن؟ هو أنت مؤمن؟ أنت ما لك ومال القرآن؟ أنا واحد من المؤمنين. قال في غـــيظ: ليـــه ســـبت الكتاب اللي فيه كلام ربنا؟ غصب عني. نظر إليَّ كمـــن لا يصدق. أعرف أنك لن تصدقني حتى لو حلفـــت لـــك بكـــل

الأيمان. تزين طريق التوبة لكل الناس إلا أنا. قلت لهم من قبل أن الله هو الغفور الرحيم وعندما قلت لك نفس الكلام قلت لي فورًا أنه المنتقم الجبار. صمت قليلاً، يا ليتك قبلت توبتي في ذلك اليوم. كنت تود أن تجعل مني شيخًا كي أكون خليفة لك. لم يكن عندي استعداد لذلك. خلاص، نظر إليَّ بغضب: خلاص إيه؟ غفرت لي يا أبي. قال في ضراعة: أستغفر الله العظيم، غافر الذنوب هو الله، قلت بفرح الذي اقترب من أمله: قصدي سامحتني.

ــ لأ.

ــ ليه؟

لا يمكن أسامحك، قلبي وربي غضبانين عليك. قلت. بحزن، كده، قال الرجل بتحد وبقوة لم أعهدها فيه من قبل: أوعى تدخل البيت الطاهر دا خالص. لولا سمعتك في هذه البلدة لأرسلت لك صابرين إياها كي تكون شفيعتي إليك. ولكنك والدي مهما حدث منك. روح مطرود من رحمة الله تعالى. أبد الآبدين.

* * *

ــ أنت كنت فين ليلة قتل الحاج منصور؟

ضحكت من سذاجته:

ــ في الدنيا الواسعة.

لوح لي بقبضته:

ــ حدد مكان معين.

إلا تعرف أنه ليس مكان معين، لو لم أجد مكانًا لكنت القاتل مع أني لم أقتل أحدًا، فلأحدد لي أي مكان.

ــ كنت عند سكينة.

ــ من إمتى؟

ــ من أول الليل.

حركات استنكار، معذرة أيها المؤمنون، شرخ بسيط يحدث في جدار الإيمان السميك لدى كل منكم، قليلاً ويلتئم الصدع، ويعود كل شيء إلى مجراه الطبيعي، دعوني أسألكم كم واحد منكم رفضته سكينة وطردته من منزلها في النصف الثاني والأخير من الليل؟

ــ دا ملعون.

ــ هو يا أخي عنده دم.

تساءل الضابط:

ــ كنت بتعمل إيه عندها طول الليل؟

ـــ كانت عيانة. كنت قاعد جنبها.

ـــ هو أنت دكتور؟

قال أحدهم:

ـــ أصل الدكتور في أجازة، وهو بداله.

تسخرون من زهران، سأعود لكم عما قريب، سأسمع منكم كلمات النفاق، مرة أخرى.

ـــ الست كانت عيانة طلبتني رحت لها.

ـــ عمل عظيم.

قال:

ـــ النبي وصى على سابع جار.

ـــ ألف رحمة ونور عليه.

تتحرشون بي الآن، لن يقدر هذا الضابط أو سواه على حمايتكم مني، تمسكون بي من موضع الألم، تقصدون أنني بلا منزل وبلا جيران، عندما أنام في العراء، لا يكون هناك من جيران لي، سوى بندقيتي في الناحية اليمنى. وطلقات الرصاص في الناحية اليسرى، فليبق لي هذان الجاران.

ـــ أنت متأكد من الكلام ده؟

ـــ طبعًا.

ـــ طيب هاتوها.

ثم نظر إليَّ:

ـــ استنه أنت جوه.

* * *

انتظرتها في الطريق إلى مسجد سيدي تاج الدين، ليلة الجمعة أقدر إخلاصك لسيدك يا حسن، ولكن الحب أعمى، لا يقيم وزنًا لهذه الأمور، ألقيت عليها تحية المساء، لم ترد، قلت لها كلامًا كثيرًا، لم ترد، حسن أبدى استياءه من هذا التصرف مني، معذرة يا حسن، أمثالك لا يعرفون عن الحب إلا أنه نوع من الخروج على المألوف في الحياة، أعرف عنه الكثير، تمامًا كما أن الجائع هو الوحيد الذي يعرف عن الرغيف أمورًا أخرى غير استدارته. وكما أن عابر الصحراء يعرف عن الماء أكثر من اللون والطعم والرائحة، أعرف عن الحب أمورًا أخرى كثيرة، تمعنين في الدلال يا عيشة، سأصبر مهما حدث منك. ستأتي لحظة تتنازلين فيها عن هذا الدلال، ربما انتظرتها عامًا. أو أكثر من ذلك، ولكنها قادمة على أية حال.

* * *

ـ أنا ألقي عليك القبض بتهمة قتل الحاج منصـــور أبو الليل مع سبق الإصرار.

قلت له بهدوء:

ـ أنت شايف كدا؟

كور قبضته:

ـ هناك ح أعرف أخليك تعترف.

قلت:

ـ يا ترى الضيافة ح تطول.

ـ إن شاء الله مش راجع المرة دي.. وشرفي.

* * *

على ضوء عود الكبريت وضحت طيـــات جســدها العاري، لا أحضر إليها إلا في الليالي التي بلا عمل، تعطيني كل شيء بسخاء، عندما أقبلها أذوق طعم الدخان في فمهـــا، ترهل جسدها بفعل الأيام، عندما أبقى معها حتـــى الصـــباح فإنها تبدو متعبة. في المرة السابقة انزعجت عنـــدما أغمـــى عليها وهي معي. زهران؟ انطفأ عود الكبريت أصبحنا نسبح في حجرة مظلمة. ماذا تريدين؟ لن أرد عليك، ساعة الحظ لا

يمكن أن تعوض. زهران؟ قلت بضيق: عايزة إيه يا سكينة؟ قالت بحب مصطنع عايزاك جنبي. لو نزل من السماء مــن يقسم لي على صدق حبك لأحد ما. ما صدقته، ما أنا معاكي آهه، قالت وهي تضمني إليها: عايزاك على طــول، قلــت بغباء: يعني إيه؟ غضبت في وقت لم يخلق للغضب، تناثرت حبات العرق ــ رغم أننا كنا في عز الشتاء ــ بين نهــديها وانزلقت إلى البطن التي عرفت الحمل مرات ومــرات، مــا أنت عارف، قالت: حا نعيده تاني، لا تفرقين بين أوقات اللذة وأوقات العمل، حياتك كلها صفقات، أنت الآن تحاولين عقــد صفقة، انتظري، بعد أن أنتهي منك ســأقول لــك الحقيقــة. شوفي يا سكينة، انتبهت إليَّ، أيوه يا روح سكينة، قلت لهــا: حكاية الجواز دي عايز أكلمــك فيهــا بصــراحة، جلســت بجواري، كنا قد فتحنا الباب، كان هناك مسقط نور بسيط، ما زالت عارية، استندت عليَّ، قول يا روح روحي، عندما قلت لعيشة مساء الخير يا ست الناس لم ترد عليَّ، مسحتني بنظرة غضب، ولى شبابك يا سكينة، أنت بعد الأربعين، أنا لم أصل إلى الثلاثين بعد. ضاع جمالك، أنت الآن بقايا لبعض الليالي السود. قلت لعيشة في نفسي أحبك. أسرعت في طريقها إلى

مسجد سيدي تاج الدين، أنا طبعًا ما عنديش استعداد للجواز، خبطت صدرها. لم يبق في نهديها شيء يخبط، أمال كنت بتضحك عليَّ؟ كم رجلاً تحسس هذا الصدر، صدر عيشة أحلى منه ألف مرة، كم رجلاً ذاق أحط أنواع الدخان من فمك عندما هم بتقبيلك، بطن عيشة متماسك، لم يعرف الحمل بعد، دا أنا اديتك نفسي كام سنة من العمر، هل نسيت زوجك الذي رموه في السجن منذ سنوات؟ ماذا سيكون موقفك منه؟ ماذا ستقولين له بعد أن يخرج إن كان مقدرًا له الخروج؟ ابكي على اللي صبح في الحي وحداني، بدأنا فصل النواح والبكاء، لا يوجد عندي أقل استعداد لسماع كلمة واحدة منك.

حياتي قصة ستكون حزينة الختام. اسمعي توقفت همساتها، مش عايز كلام فاضي، لم ترد عليَّ، تنتظرين الزواج مني. ولهذا لم تعامليني كزبون يدفع في كل مرة، كنت واهمة، لست على استعداد للزواج من واحدة أعطت نفسها لكل الرجال. عما قريب سيخرج زوجك من السجن، ويبدأ بيني وبينه فصل من الصراع بسببك أنت، هل ما زال يحمل في نفسه لك قدرًا من الحب؟ الحب. ولكنه الضيق، ما أفعله معك شيء أقوم به بحكم العادة. هروبًا من الفراغ، كل

حركات الدلال التي أسمعها منك شيء تقومين به بحكم العمل، تمارسينه مع كل الناس، دلوقتي بقى كلام فاضي؟ لم أرد عليها. ارتديت ملابسي في صمت. صمت مشحون مليء بالتوتر الحاد، ظلت عارية، استعديت للخروج من منزلها، أمسكت بي، في عينها شيء يبدو كالصدق، لن أصدقك، إذا قالوا يومًا أن للحرباء لونًا واحدًا فسأصدق أن الحب قد عرف طريقه إلى قلبك، برضه أبقى تعال، قلت: وحا تقلبيها غم، قالت وهي تمسح دموع الزيف، لا. أوعدني، عيشة بكر، لماذا يشيخ الناس ولا يموتون وهم في عز الشباب، حكمة الشيخ هراء أكيد، قوة الشباب لا يعدلها شيء، تلك هي حكمة الله.

* * *

رفضني الحاج منصور أبو الليل، ذهبت إليه طلبت منه يد عيشة، كنت شجاعًا، سلمت عليه سلام الرجال، الند للند، كان أبوك رجلاً طيبًا يرحمه الله، تعيش أنت، أن مصدرًا للصلاح والتقوى في بلدتنا، خلف لنا الشيخ مسعود، والشيخ مسعود أحد مريديه وليس ابنًا له، كان أولى بك أنت أن تكون مكانه، حكمة ربنا، حضرت لطلب ابنتك وليس

لسماع موعظة عن الحياة والموت، كنت أحب والـــدي لحـــد العشق، فعلت الممكن والمستحيل حتى أحصل على رضـــاه. ولكنه أغلق قلبه دوني. لست أدري من المسئول، أنا أم هو؟ أم أن هناك ظروفًا أخرى قد تسببت في هذا، بلدتنا في حاجة إلى رجل مثله، لا أصلح لذلك، ابحثوا لكم عن رجل آخــر، الشيخ مسعود لا يصلح، دعنا من كل هذا يا حاج.

ــ هل الصفقة لا تعجبك؟

أنت خير من يعرف المساومة في بلــدتنا، أعتبــرك أستاذي.

أمارس عملي في الخفاء وفي الليالي المظلمة، أنــت تمارسه علنًا وبعلم الكل، نحن متفاهمان على هــذا، تفاهمًــا صامتًا لم تقل خلاله كلمات.

ــ وبتشتغل إيه يا سيد زهران؟

عملي ليس خافيًا على أحد، أنت وغيرك تعرفه، أنت الوحيد الذي لم تحاول أن تستعين بي، لقضاء حاجة، لأنــك خير من يقوم بهذا العمل، ما أنت عارف يا با الحـــاج، قـــال برجولة حسدته عليها:

ـ قصدي بتاكل منين؟ يود أن يرفض بطريقة مؤدبة.

ـ لا فائدة معك، أنت رجل قوي، أنا أدرك هذا. أنا عايش من شغلتي.

ـ إيه هيه؟

ـ ما أنت عارف يا والدي الحاج، قال بصوت ممتلئ:

ـ طيب قوم.

لم أتحرك، أين شجاعتي؟

ـ قوم.

وقفت، لست أدري كيف حدث هذا.

ـ انجر من هنا.

قلت بدون وعي: على العموم أنا أولى بيها. أنا ابن البلد. لو حد خدها غيري لازم أموته. أقتله، فاهم، ثار الرجل، أعترف أنه قوي، خفت منه في بداية الأمر ولكني تشجعت.

ـ أنت عارف لو شفتك هنا، حا أنفيك، حا أرحلك. امشي.

انطلقت من فمي كلمات تهديد، هددته بالقتل، هددته بحرق زراعته وسم مواشيه، هددته بكل وسائل التدمير التي أجدتها على مر السنين، ولكن الشيء الوحيد المؤكد أنني بعد أن ذهبت بعيدًا عنه شعرت بطعم الهزيمة، هزمني الرجل، كنت خائفًا منه، ولو زوجها لرجل سواي فلن أفعل أي شيء، أنا أخاف منه، إنه أقوى الرجال هنا، مضت عليَّ ليلة من أسود ليالي العمر ولولا أنني أمضيت أغلبها مع سكينة لما مرت بسلام.

* * *

حضر إليَّ الشاويش فتحي، طلب مني شيئًا يضاعف من قدرته مع زوجته، ستحلو لنا معًا ليالي الأنس، شاهدت في عيني زوجتك نظرات الشك في قدرتك، أعطتك ظهرها، بدأت ترى نوعًا من الذبول في جسدها. لو لم تعالج الموقف بسرعة لعدت ذات ليلة لتجدها بين أحضان رجل آخر، طعم الخيانة هو أجمل شيء بالنسبة لامرأة أعطت نفسها لرجل واحد وعشرين عامًا من العمر. حسن الأعرج بجواري لا بد من الاتصال به، المرة الأولى التي يدخل فيها السجن أشاعوا في بلدتنا أن له دخلاً في قتل الحاج منصور. بالاتفاق مع

الحاجة طمان، لا يمكن أن أصدق هذا الكـــلام، تلـــك هـــي فرصتي كي أوثق علاقتي به، سأحتاج إليه بعد خروجي من السجن، سأواصل الطريق مع عيشة، عندئذ، لا بد وأن يكون حسن الأعرج أكثر نفعًا لي، الشك في عيني الشاويش فتحي يزداد. لا تغضب.

* * *

قتل الحاج منصور أبو الليل، لا بد وأن تمتـــد لـــي بعض المتاعب، هددته في الأسبوع الماضي، هددته بالقتـــل وبأمور أخرى، لم أكن أعني التهديد بالفعل، كنت أقـــوم بـــه كنوع من الدفاع عن نفسي الجريحة. لم أكن أقدر على قتله، ولا حتى على الاقتراب منه، ليتني ما هددته يومها، كان من الممكن تسوية الأمور بطريقة أخرى غير التهديـــد، وجـــدوه مقتولاً عند الساقية عقب ليلة من العمل في الحقـــل، لســـانه مدلى، عيناه جاحظتان، لا أؤمن بالعفاريت ولا بالجن، الكـــل يقولون: إن عفريت عبده هو الذي قتلـــه، حســـن الأعـــرج صامت لم يقل شيئًا، لم يفلح المحقق في أن ينطقه بشيء ما، هو الوحيد الذي كان مع الحاج منصور أبو الليل في الحقل، كيف لم يشاهد مثل هذا الأمر؟ لا أحد هنا يجرؤ علـــى قتـــل

الحاج منصور، حتى أنا لا أجرؤ على مجرد التفكير في هذا، كيف تفكرين الآن يا عيشة، لا بد من توضيح موقفي لها. قد تشك في أنني الفاعل. أحبك، تلميذ الأزهر كان يحب والدي، كان يجلس أمام منزلنا يومًا بأكمله في سبيل أن يقبل يد والدي، يربطني بك شيء من هذا النوع يا حاج منصور. دلوني على البطل الذي قتل الحاج منصور كي أعقد معه صفقة عمل مشترك، لا بد وأنه يفوقني في العمل، عنده قدرات أخرى لا أعرف عنها أي شيء، يرحمك الله يا حاج منصور، موتك يعني أمرًا واحدًا بالنسبة لي، يعني أن مشروعي لا بد وأن يتوقف عامًا، عام الحداد، لا بد وأن بياض عيشة سيكون جميلاً وسط الثوب الأسود، أقسم لك يا أغلى ما في الحياة أنني لا دخل لي في هذا الموضوع، أن الذين يحبون يا عيشة لا يعرفون شيئًا غير الحب، أود أن أعرف منك السر يا حسن، ربما أصبح الطريق إليك بعيدًا يا عيشة، لو كان القاتل عفريتًا لما خفت منه، كان لوالدي عفاريت يحدثهم طيلة الليل. لا أؤمن بهم، أمارس حياتي بالليل، لم أعرف العفاريت، كثيرًا ما سهرت على ساقية الحاج منصور. لم أر عليها أي شيء، الليلة كانت مقمرة.

العفاريت لا تبدو إلا في الظلام عند حسن السر. لا بد من معرفته. لا بد.

* * *

رفضني إخوتي، يخافون مني، يرفضون أي شيء أقدمه لهم، لم يبق سوى أمي.

ـ يا أمه أنا عايز أعيش معاكي.

ـ المرحوم مات غضبان عليك.

قلت لها:

ـ الحي أبقى من الميت.

نظرت إليَّ بحزن:

ـ والله الشيخ كان عنده حق، الله يرحمه.

ـ يعني عاجبك كدا.

قالت بحدة:

ـ لا أنت ابني ولا أعرفك.

ـ حتى أنت.

ـ المرحوم مات وهو غضبان عليك.

ـ هو المرحوم دا كان ربنا.

ـ أديك شايف غضبه عليك.

لا فائدة من محاولة العودة إليها، أود أن أعيش معك، ماذا يغضب المرحوم في هذا، أود أن أنفق عليك، أنت تعيشين على الكفاف، هل يرضيك أن أقلق المرحوم في قبره يا زهران؟ شقيقي الأصغر يعمل كاتبًا في الجمعية التعاونية، أكبر حرامي في البلد، وجودك معي يعطي الحياة معنى ما.

ــ طيب خدي دول.

ــ إيه دول؟

ــ فلوس تصرفي.

رمت بهم بعيدًا.

ــ حرام عليك، مش كفاية أنت، عايز تجرنا كلنا معاك.

لم تقبل مني مليمًا واحدًا، أنتي حرة، حكمت عليَّ أن أعيش في المنفى بقية أيام العمر، منفاي ليل طويل، ليل لن يشرق بعد نهار، ليل ظلامه لزج، سامحك الله.

* * *

أستطيع الآن أن أصدق أن للحرباء لونًا واحدًا، وأن أصدق أن الطبيعة قد رحمتها القدرة على تغيير لونها بتلك السرعة. الزواج منك يا عيشة ليس رغبة، إنه الطريق نحو

الأمان، ربما كان فيك قدرة ما يا سكينة، ولكنك لا تصلحين لحياة قد تطول، جسد عيشة جميل، أجمل ما فيه إنه بكر، نهداها لم يعبث بهما أحد. ما زالا في تماسك ثمرة الجوافة قبل أن تسقط من على الشجرة. أجد مع سكينة الأمان خاصة في بعض الأوقات العصيبة، في ليالي الفراغ، غير صحيح أن تحضر سكينة لزيارتي في السجن.

ـ مش عايز تقول على اللي قتله يا زهران؟

ـ ألم أكن عندك ليلتها؟ اسألي الجدران الكالحة، أو مياه الاستحمام، أو حتى النافذة التي يسمع من خلالها الأهالي كل شيء.

والله ما نا فاكرة، مرت فترة صمت، يجب أن أعتذر لك يا سكينة عن آخر ليالينا معًا، كنت كريمة معي، لو أدركت حقيقة مأساتي، لوجدت لي ألف عذر، نحن لا نحصل إلا على الأمور التي لم تفكر فيها، ليس هذا هو الوقت المناسب للاعتذار.

ـ يعني أنت مش عارف مين اللي قتله؟ قلت في ضراعة:

ـ يا ربي، اقتربت مني في دلال.

ــ أطلع من دول، أشعلت لي سيجارة.

ــ أنت لازم تعرف يا زهران.

ــ لا. لا أعرف، يبقى لازم واحد من بتوعك، لم أقم بعمل شركة لقتل الناس بعد.

ــ صارحني يا زهران، لا بد وأنك عينت للعمل مع رجال البوليس.

أمرك غريب يا سكينة كان الحاج منصور أبو الليل مصدر متاعب بالنسبة لك، لم يكن هناك من يجرؤ على الدخول عندك إلا بعد قيامه من مدخل الحارة.

ــ مخبي عليَّ؟

ــ ماذا يهمك في هذا الموضوع؟

ــ إذا كان هذا الموضوع يهمك أصارحك.

ــ عايزة أطمئن نفسي أن الراجل بتاعي هوه اللي قتل الحاج منصور أنت عارف أنا با كرهه قد إيه.

ــ إذن حاولي معرفة القاتل من ناحيتك كي تعطيه الحلاوة. تعلمين أنني طلبت يد عيشة عقب ليلتنا إياها، لم تفاتحيني في الأمر بعدها، قلت معصعصة، قلت أيضًا أنها لا تتحمل ليلة واحدة، قلتي لي أنها على علاقة بفتحي زميل

حامد في المدرسة، تحاولين أن تفهميني أنها لا تصل إليــك، وأنت لا تغارين منها، أنت جوفاء يا سكينة، بعت كل شــيء في أرخص الأسواق، بعت أشياء أنت في أمس الحاجة إليها، أكرهك، صبحية خروجي من هنا سأذهب إليك فــي وضــح النهار، سنمضي معًا لحظات من القلق والجنــون، لا أجــد عندك أي شيء، ولكن لا يوجد هنا ســواك. كانــت تــدخن بعصبية.

ـ سبتك بعافية.

ترهلت، تقدمت في العمر، أيام قليلة غيرتها، لا بــد وأنها تمارس عملها بكل حرية، ذهب الحاج منصــور أبــو الليل وخلا لك الجو يا سكينة، لا يوجد من يقف أمامك، لــو تكلم حامد وهو كالبنوتة في نظرك، ليلة منك كفيلة بإســكاته على الأبد، أود أن أعرف السر الذي يربطك بالشيخ مسعود، كان أقرب الناس إلى والدي، أنا لا أشك فيه، لو ذهبت إلــى المدرسة لن أدرس سوى الحرباء، فهي الشيء الوحيد الجدير بذلك.

* * *

قالوا إن المرحوم لا يود أن تسير في جنازته، أنــه والدي ـــ هذا حق من حقوقي قال أحدهم: لــو ســرت فــي الجنازة لامتنع المرحوم عن السير وتوقف نهائيًا. بل ربمــا طار نعشه في الهواء، قال المرحوم لهم ذلك قبل أن يمــوت، وقالت لهم العفاريت ذلك أيضًا، لن أقف في الطــابور كــي أتقبل العزاء من أهل البلد. عظم الله أجرك، دلوني يا أهــل الضهرية كم رجلاً نظيفًا فيكم؟ شكر الله ســعيك. أصــبحت أكرهكم، عندما يقبل موسم القمح سأشعل قطعة من النار في ذيل كلب كي تتحول البلدة كلها إلى قطعة من الجحيم، لا بــد وأن يكون هذا الكلب مجنونًا، وقفت فوق شجرة جمير عاقر. لم تزهر فيها ثمرة واحدة. لو أزهر فيها شيء، لــن يكــون سوى الحزن. شاهدت النعش من بعيد، كأحد الغرباء. كــان المشهد طويلاً، خرج كل أهل البلدة، هل أوصيت بهذا حقًا يا والدي؟ عند أهل الدين نوع من الرحمة. أين هي؟ حرمتنــي حتى من هذا. لم؟ عليك كل رحمة الدنيا. أنا واقــف فــوق شجرة عقيمة أشاهد مشهدك، طلب إبعاد ابنه عن مشهده. كل الناس تسير خلفك إلا أنا.. يرحمك الله.

* * *

ليلة الحظ لا يمكن أن تعوض، هي العزاء، بل ربما كانت البلسم، ارقصي يا غازية الضياع. أكثروا من طلقات النار، وأطفئوا الأنوار، هذا موسم كساد سأعطيك كل ما معي، اقتربي مني. في بعض الليالي أحمل نايًا حزينًا، أرسل عليه بعض الآهات، السيجارة التي في يدي ليست معمرة، إنها سيجارة عادية، كل ليلة أقضيها في إحدى البلاد كالكلب الضال، وسيلة المواصلات هي قدماي، ابن ليل. جازاك الله كل خير يا والدي. أيام السجن تعد نوعًا من الراحة لي، أو كما يسميها الموظفون نوعًا من الأجازات.

أفرجوا عني اليوم، دفعت الكفالة التي طلبوها. لو بحثت في الدنيا كلها من شخص يضمنني لما وجدت شخصًا على استعداد لذلك، خير لي أن أقتصر الطريق. لو لم تكن معي الكفالة لبقيت هنا إلى آخر أيام العمر. يحاول الضابط أن يفهمني أن خروجي كان منحة منه، أخرجتموني لأنكم فشلتم في إدانتي. أود أن أعاونكم في الوصول إلى القاتل، شربت من الصعلكة. حتى لم يبق لدي مكان أشرب فيه المزيد، تعبت من حياتي، أريد أن أستريح، مضى عليَّ وقت طويل لم أر فيه ضوء النهار. لم أشعر بمعناه أو حتى

بطعمه، ضمنت حسن الأعرج وخرجنا معًا، قرأت في عينيه نوعًا من العرفان بالجميل. سأحتاج لك قريبًا. حاولت أن أعرف منه السر، فزع مني بمجرد أن وجهت له السؤال، شاهدت سكينة خارجة من عندك يوم أن كانت في زيارتي، هل بحت لها بالسر؟ نحن رجال وأود أن أعرف منك السر، كي أنتقم لكم، هل أنت ابن الحاج منصور أبو الليل حقيقة؟ كن ابن من شئت. ولكني أود معرفة السر، أنت أحسن مني حالاً، لك حجرة مظلمة، في منزل الحاج منصور أبو الليل، أنت قريب من عيشة، هي التي تقدم لك طعام الإفطار كل يوم. (يعطي الحلق لمن لا أذن له). وداعا أيها السجن، بيننا معاهدة نحافظ عليها بكل دقة. ربما كانت أكثر احترامًا من كل معاهدات هذا العصر اللعين.

* * *

حدث شيء غريب..، الغفير محمود مصطفى البرادعي ذاهب إلى الضابط، قال: إن عنده أقوالاً تفيد في القضية، كان محمود حارسًا على جثة القتيل، أي سر تخفيه يا محمود. بمجرد أن يعود سأذهب إليه، ستكون رأس القاتل هي مهرك يا عيشة، حتى لو كان القتل هو العفريت.

* * *

لم يخرج حسن الأعرج من المنزل، لن أرسل في طلبه حتى تحوم حوله الشبهات، طال انتظاري يا حسن، أكثرت من مروري أمام منزل المرحوم، أصبح الحاج منصور أبو الليل مرحومًا، الحارة لا قيمة لها بدونك يا حاج منصور، أحد الأيام والليالي في انتظار خروجك، السر الذي تحمله خطير، سأنتظرك يا حسن، عندما ألقوا القبض عليَّ فرح الجميع، لمحت بسمة الانتصار على وجه حضرة العمدة وبطانته، كانوا يعتقدون أنني لن أعود لهم، سأقلق حياتكم يا جبناء، حاولت أن أمد لكم يدي. فشلت كل محاولاتي، ما ذنبي! عدت لكم، سأظل التهديد الحقيقي لكل منكم، سأتجول في الضهرية على حريتي وأثخن من فيكم يتعرض لي، أصبحت لا أبالي بأي شيء، حتى الحياة نفسها، زرت عيشة، كنت داخلاً لحسن، وجدتها، لم تعطني وجهًا، كلماتها مبتورة، أحبك يا عيشة رغم كل شيء، الطريق إلى قلبك أصبح بعيدًا، لم يكن في موقفك رفض، لم يكن فيه أيضًا قبول. عندما هممت بالخروج كانت على شفتيها ابتسامة. أول الغيث قطرة ثم.. أكمل يا شقيقي الأصغر، يا كاتب الجمعية. أصبح عندك

خمسة أفدنة، لا أدري من أين جئت بها؟يبدو أنك لا تحتــرم ذكرى والدك الذي كان من أهل الصلاح والتقوى في بلدتنا. حضر حامد من دمنهور، حمدًا لله على السلامة، هو المنافس الوحيد لي، يقولون: إنه حضر كي يأخذ بثأر والـــده، شـــاب غامض، أكرهه، أكره الحاجة طمان.، حتى الآن لا أتصـــور أنها أنجبت عيشة الجميلة، لو حضر كل من في المركز فلن يأخذ بثأر الحاج منصور غيري أنا. وعدت عيشة بذلك. وعد الحر دين عليه. لو سمعت كلام المرحـــوم لصـــرت شـــيخاً كبيرًا، ضحكت في وجه الشيخ مسعود. بل ربما كنـــت الآن مثل أخي، كاتب الجمعية، لا أحب أن أكون.أنا راض عـــن نفسي يا فضيلة الشيخ، كفانا بكاء على نفسي وعلى بلواي. " قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ".

هذه أيضًا حفظتها منذ أن ذهبت إلى الكتاب، قبل أن أهرب منه، قضى أمرك يا زهران، إنــــه المكتـــوب، أكـــره حياتي، أكثر من كراهيتك أنت لها، ولكن قبـــل أن تســـألني دعني أعرف منك لماذا تتردد على منزل سكينة، تـــرد لهـــا دينها. هيه. لم يعد عندها مكان لدين أو خلافه، أين ذهب دم

عبده؟ قتل عند ساقية الحاج منصور أبو الليل، أين كنت أنت يا مفتي الديار؟ يا حامي حمى الفضيلة على الأرض؟

* * *

فعلت المستحيل مع سكينة، ولكني فشلت. كانت قد تجردت من ملابسها بدت خطوط الزمن واضحة، عندما تأكد لها فشلي كانت قد اقتربت من حافة الجنون، مزقت جسدي. بحثت عن الرجولة في أعماقي. كنت في عالم آخر، جسدي لم يكن معها، بعد أن تركتها عارية، ترهلت. لهثت كثيرًا. يبدو يا عيشة أن خلاصي كامن فيك.

ـ تقيد الجريمة ضد إيه؟ الحياة أمنية. الموت أيضًا أمنية. هو ما فيش غيره العفريت. هناك خطر حقيقي يتهدد الضهرية. ضد العفريت، عفريت سي عبده، هذا الخطر أعمق من قتل الحاج منصور أبو الليل، يهددنا كلنا، نحن أهالي الضهرية، نطلب منكم الانتظار لحين التفاوض وإلا فإننا سنضطر آسفين.. قيدوها ضد أي شيء. عفريت عبده أو عفريت آخر. ولكني لن أكف عن البحث. لا بد وأن آخذ بثأر الحاج منصور أبو الليل.

* * *

قتل حسن الأعرج.

ماذا تخفين وراءك يا ضهريتي، يا حزينة؟! تبــدين بعد الحاج منصور أبو الليل وكأنك يتيمة بــلا أب وبــلا أم، اسأليني أنا عن معنى اليتم والحياة في العراء، قتــل حســن الأعرج، قد يكون فقد الحياة أمنية، وجدوه ملقى علــى دوار الساقية. قتل مخنوقًا وجدوا لسانه خارجًا من فمــه. عينــاه جاحظتان تحدقان في سماء صامتة، شــيء آخــر غريــب، وجدوا إلى جواره خمسة جنيهات طبقت لأصغر حجم ممكن، كيف حدث هذا يا حسن؟ متى خرجت من المنزل؟ وذهبــت إلى القبر بسرك يا حسن. ليرحمك الله.

* * *

فليكن من يكون المعتدي، لا بد وأن أتصــدى لــه، زهران الوحيد اللي يقدر أن يقف للعفريت، ترى على مــن الدور يا بلدي. كلنا مهددون بالقتل، ما عفريت إلا بنــي آدم. أنا فداك يا بلدي. لم أجد منك إلا الجحود والنكران، نحن في موقف لا يصح فيه العتاب، أنت الفرصة التي انتظرتها منــذ طفولتي وصباي، لم تبدين هكذا يا عيشة تحملين فوق كاهلك جبلاً من الهموم والأحزان؟ كل هذا الحزن على حسن، أنــا

مستعد أن أموت كي أحظى بمثله، لو كان والدي موجودًا لما حدث لنا هذا، يا حضرة الضابط أنا مستعد أعمل أي حاجة، كان عند والدي في المنزل عدد كبير من هـذه العفاريـت، سيادتك تؤمن بالكلام ده، لا، مات والـدي غاضـبًا علـيَّ، عزمت على التوبة، لا بد من الذهاب إلـى السـاقية، مـن سيحضر إلى هناك سأقتله، يمكن يكون العفريت يا زهـران، سأقتله.

حملت بندقيتي، وأنا أضحك على نفسي، قال الشـيخ مسعود: ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط، الرصـاص لا يؤثر على العفريت، الشيخ مسعود منـافق، لا بـد مـن الانتقام، عشت كل السنوات التي مضت من العمر في العراء قد تمتد يد العفريت إلى بلدي، قد تمتد إلى عيشة، هنا يهـون العمر وكل شيء في الدنيا.

* * *

كن شفيعي عند والدي يا سـيدي الشـيخ مسـعود، طردك والدك من رحمته وانقضى الأمر، أنت أقرب النـاس إلى والدي. كلمه وسيزول كل شيء، إنه والدي رغم كل مـا حدث، سقت عليك النبي، لعنك والدك، أصبحت مطرودًا من

رحمة الله وانقضى الأمر، أنا كالكلب الضال، بلا أسرة، أنت لم تجرب الضياع بعد، ابعد عن طريقي يا زهران، لا تخرب بيتي، هل يرضيك أن يموت إنسان ما شوقًا إلى كلمة حب؟ إلى لحظة حنان؟ إلى دفء أم؟ على عطف أب؟ جزاك الله كل خير يا سيدي الشيخ مسعود، أنا لا أقوى عليك، لو لم تبتعد عن طريقي لأحضرت لك من يستطيع أن يوقفك عند حدك، لم يعط الله كل هذه القوة لكافر مثلك ألحد وصرت، لا تغلق باب الرحمة، الله غفور رحيم، لم أفقد الأمل بعد، كلمة واحدة منك في لحظة من لحظات الصفاء، ويزول كل سوء التفاهم، وتعود المياه إلى مجاريها، ربما كنت شيخًا صالحًا ذات يوم، سيكون لك عند الله خير الجزاء. رفض الشيخ مسعود. استغاث بالناس، قال إنني تهجمت عليه، أحاول أن أسرقه، حتى أنت تكذب يا شيخ مسعود. أحد تلاميذك يا والدي يكذب، تعال كي تضبط هذا الخطأ العظيم، حاولت أن أسافر إلى كفر الدوار للعمل هناك، لم تكن معي نفقات السفر، أعادوني من التوفيقية، قضي الأمر، مرحى يا ليل الضائعين، قضي الأمر وصرت صعلوكًا، لا حياة لي إلا في جنباتك سنعيش معًا نضاجع الخطيئة. وندخن الضياع ونثرثر

الغربة، عقد قراننا الليلة، ليلة سوداء، قتل محمود مصطفى البرادعي وجدوه مقتولاً على دوار الساقية وبجواره بندقيته وذخيرته وخوله، القاتل واحد في جميع الحالات، اقترب الآن من الساقية. ما هذا؟ الله المستعان، طلب المرحوم ألا تسير في جنازته، مساء الخير يا ست الكل، السكوت علامة الرضا أهل زمان قالوا لنا كده، الليل مملكتي، بلدتنا كانت مملكة الحاج منصور، قتل الحاج منصور، سلمت عليه باحترام، والدي العزيز.. والدي العزيز.. أنت السبب في كل هذا. دمت لنا. كن لي بر الأمان. قلبي وربي غضبانين عليك. طردت من رحمة الله، أخي كاتب الجمعية. سكينة مسكينة عيشة لم ترد عليَّ، اقترب الآن من الساقية. قتل الحاج منصور، كن شفيعي، طلب والدك ألا تسير في جنازته. حضرة المحترم الوالد. لم طلبت ذلك؟ لم ظلمتني؟ أحبك رغم كل هذا. اقترب من الساقية.

ما هذا؟ الله المستعان. الله المستعان، عبد الحسيب الرفاعي والدي. أنا زهران. عيشة حبي. سكينة بقايا الليالي السود، العفريت، الساقية. أنا زهران.

طرح الأسئلة

طرح الأسئلة

أنا حامد

حامد منصور أبو الليل أطلب العلم في دمنهور، يعذبني البحث عن أمور أخرى.

* * *

قالوا إننا في عصر الصواريخ، صحت فيهم، لن أصدق أن والدي الحاج منصور أبو الليل قد مات، مات مقتولاً، غير صحيح أن يقتل الحاج منصور، من الذي يجرؤ على قتله؟ أنا على استعداد أن أصدق أن الأرض ستفنى أو أن الشمس أحرقت كل شيء، خارج مجال الجاذبية الأرضية، قد أصدق كل هذا، ولكني لن أصدق أن الحاج منصور قد قتل، نحن في زمن تحدث فيه كل الأعاجيب، كانت الشمس الذبيحة قد اقتربت من أفق دموي حزين، الحمد لله، سأموت الآن وأنا مستريح الخاطر، هادئ البال، أنجبت رجلاً، كان هذا ينغص عليَّ حياتي، القتل معناه إن إنساناً يموت، كانت الحياة ستكون نوعًا من الجحيم لو تركت عيشة تواجه الحياة بمفردها، أسرع في النمو يا حامد كي تكون

رجل البيت من بعدي، كل لحظة تمر من العمر تبعدنا عــن الحياة، سأترك الأرض والاسم والجاه وأجمــل فتــاة فــوق الأرض على شريط أن تكون غنية ومن عائلة محترمة، كل لحظة تمر من العمر تقربنا من الموت، تبدو خجولاً يا حامد، في عيشة جرأة أكثر منك، مع الأيام ستتعلم الشيء الكثيــر، حفظك الله يا حامد، أحضروني اليوم من دمنهور، قتل والدك عند الساقية وجدوه مقتولاً ذات صباح حزين، كــان يــروي الحقل مع حسن الأعرج، كان لسانه مدلى، عيناه جاحظتــان، ملقى فوق دوار الساقية آخر ساقية بناهــا أبــي، أرضــه لا تحدها حدود، لا أعرف عن صفقاته الشيء الكثير، كل أرض بلدتنا ملك له، كل حيرة تقذف بي إلى حيرة أخــرى أعمــق منها، مات أبي، مات مقتولاً، عليَّ أن أستعد من الآن لأعوام من الحداد والحزن، قد يطالبونني بالأخذ بثأره، ربما كنــت بعد ساعة من وصولي أحمل بندقية في محاولة للبحث عــن القاتل، لا بد وأن هذا القتل وهم من الأوهام التي يتعاطاهــا أهل بلدتي.

* * *

عندما يتدلى الإنسان حتى القاع يتساوى كل شـــيء أبويا انقتل يا فتحي، قال بصوت حزين: شيء غريب، كـــل شيء هنا غريب، لا بد وأن أكفر بكل شـــيء مـــا دام فـــي الضهرية لسان مدلى وعينان جاحظتان وجسد متصلب تفوح منه رائحة نتنة، أنا مسافر، كلنا مسافرون إلى جهة مجهولة، مش ممكن أسيبك تسافر لوحك يا حامـــد، طـــرح الأســـئلة الحائرة هو الشيء الوحيد الذي تبقى لي، أنا خايف تتـــورط هناك في أي حاجة يا حامد، قالوا لي كذبًا أن الطبيعة مليئـــة بالإجابات الجاهزة. بقى أن تطرح الأسئلة، جايز يقولولك خذ بتاره، السؤال الخالد الآن. كيف مات منصور أبو الليل؟ ومن الذي قتله؟ دا لازم يحصل ولكن كيف؟ إن لـــم يكـــن ذلـــك برغبتي ماذا أفعل أمام أهل البلد، دا كلام فاضي، فـــي هـــذه الحالات يتساوى كل شيء.. تساوى الأقفاء والوجوه، الحيـــاة والموت، الوجود والعدم أنا في موقف حرج، محتار، لم أجد الكلمات كي أرد عليه، حدد موقفك يا حامد، تهت بين جنبات الصمت، بدت الكلمات كبر أمان من المســـتحيل الحصـــول عليه، الصمت المحير الجياش، الصمت الملـــيء بصـــنوف القلق والعذابات.

ــ أنت خايف من إيه يا حامد؟

ــ أنت تتحدث من الخارج يا فتحي، تقدر أن تكـــون مجرد مشاهد لمأساة أنا أحد أفرادها، لن أقول أبطالهـــا، أنـــا لست بطلاً، شئت هذا، أو لم أشأ، هذا أول امتحان لي، العلم لن يفيدني شيئًا، من لي بجلد الحرباء، أو نـــاب الـــذئب، أو شجاعة زهران الرفاعي، أو على الأقل قدرة الثعلـــب علـــى المراوغة في حقول الذرة.

* * *

عصر اليوم الخامس لوصولي إلى الضهرية. الشمس تغطس عند حافة الأفق، نصفها الأسفل قـــد ذاب فـــي ميـــاه الترعة، النصف الباقي ينتظر دوره في المـــوت والـــذبول، تموتين يا شمس اليوم دون كلمة وداع، دون تنهيدة حـــزن، تموتين دون أن تجدي من يدفنك في الأفق الغربي، معذرة أنا مشغول بأمور أخرى، أنا سائر إلى الساقية التي قتل عنـــدها والدي، أحمل على كتفي بندقيتي، في يـــدي اليمنـــى أعيـــرة نارية، سأقتل العفريت، سأنتقم منه، حتـــى البندقيـــة مبطنـــة بالخوف مثلي، لا بد مما ليس منه بد.

ــ أنت ما تتهمش حد يا أستاذ حامد؟

فكرت. أتهم من؟ أصابع الاتهام من الممكن أن توجه إلى كل الناس، لا. لا، تعتقد مين القاتل؟. ساعدنا أرجوك، كنت في دمنهور، ما حدث لهم لم أكن أتوقع حدوثه، حسن وهو الوحيد الذي كان معه صامت، لن يفضي بسره لأحد. ربما كان زهران هو القاتل ولكني لا أملك دليلاً واحدًا ضده، قلت إيه؟ لا أعرف.. مصيبتنا جميعًا أننا لا نعرف حتى أنت يا حضرة الضابط لا تعرف. كل شيء لا قيمة له.. لازم تساعدنا. قلت بتسليم: أنا تحت أمرك. استدار الضابط. نفد صبره، قالوا قديمًا: إننا شعب صبور. الوصول إلى الحقيقة هو عمل الضابط، كل يوم هناك حقيقة لا بد وأن تصل إليها، عندما يتسرب الملل إلى نفسك ستستوي عندك الحقيقة والخيال.

ــ المرحوم ما قالكش حاجة في لحظة من لحظات الصفاء؟

ــ لم يحدث هذا؟ كان والدي إلهًا، جعل نفسه ملكًا بلا مملكة، لم أقل هذا؟ كانت بلدتنا مملكته. لم يحدث أن تحدثنا معًا كرجال، كان بيني وبينه ستار كثيف.

ـ لاحظ أنك الابن الوحيد للمرحوم، كان هو الاستثناء الوحيد في بلدتنا، مسألة محيرة. لم أصل لحلول لها.

ـ عمرك ما سمعت منه حاجة؟.

ـ لا.

ـ افتكر؟

ـ لم يكن هناك من يقدر أن يهدد المرحوم، ظهرت علامات اليأس على وجه الضابط.

ـ أمك ما لهاش دخل في الموضوع؟

ـ لا أعتقد.

قال: وزهران الرفاعي؟ ربما. قلتها لنفسي لكن دون صوت، القتل أحد أعماله الرسمية في بلدتنا، ولكن لحساب من؟ لسنا في موسم انتخابات حتى يجد زهران من يؤجره لقتل والدي. ثم إن والدي ليست له أطماع سياسية.

ـ زهران كان قد طلب إيد عيشة أختك.. الحياة لغز. العمر يمضي بنا في رحلة حزينة.

ـ والدك رفض، كل شيء يبدو كطلسم مجهول.

ـ زهران هدده بالقتل.

ـ أين كانت كل هذه الأسرار؟ مهما عرفنا فهناك على الدوام شيء ينقصنا لا بد من معرفته، زهران؟ إنه أرجل الرجال في هذه الناحية.

أنا في الواقع ما أعرفش حاجة عن هذا الموضوع، وأنت يا عيشة ماذا تخفين خلف هذه الصرامة؟ صارحيني يا أختي، كان والدي هو سرك الوحيد، كان بينكما نوع من العشق كنت أحسدكما عليه. ماذا بينك وبين الأسد زهران، رفضتني فيفي، هربت إلى أعماق الذات أضاجع الغربة. أثرثر الهزيمة. أما أنت، أنا أيضًا أحبه يا عيشة. أرجل الرجال.

ـ وحسن الأعرج.

ـ ما دخل حسن؟ في كل لحظة يتكشف اللغز عن سر جديد.

ـ ما هي حدود علاقة حسن بكم؟

ـ مجرد شغال عندنا.

ـ أقصد نسبة القرابة يا أستاذ حامد.

تساءلت بمرارة: ماذا تقصد؟

اسمه حسن منصور أبو الليل.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أنه ابن غير شرعي للحاج منصور. قلت عنك في بداية العمر إنك رجل عصري، حددت النسل قبل أن تصل مشاريعه إلينا، كيف هذا؟ والله هذه الأمور هي التي توصلنا إليها. استمر الضابط في حديثه: أصبحت في عالم آخر.

ـ مهلاً يا حضرة الضابط، ما تقوله خطير، ربما كنت لا تستحق هذا المأتم الذي أقامته عيشة لك في قلبها.

* * *

إذا لم أعد أقيموا لي تمثالاً في مدخل البلدة، أمام نخل العمدة، حمل معه عذاباته ومضى، كلب ككل الكلاب، لا تذكروني فهذا العصر من أهم سماته النسيان، إذا أردت أن يقال عنك إنك عصري، فانس كل شيء إلا عذاباتك فهي دليل العصرية الوحيد.

* * *

أنت بتتهرب مني ليه يا أستاذ حامد؟ أصبحت أخاف من نظراتك، أتهرب منك، تطلبين مني أن آخذ بثأر والدي، أن أقتل زهران أو العفريت، هل نسيت أنني لست سوى

شاب طري كما تقولين، في حياتي لغزان لم أفهمهما حتـــى الآن، عدم زواجك مع أننا في الريف، تقدم لك ألف خاطـــب إن لم يكن حبًا في جمالك، فربما طمعًا في قطة الأرض التي سترثينها عن الوالد، أما اللغز الآخر فهو أن والدي ــ رحمه الله ــ لم ينجب سوانا، لا يا عيشة، كانت مشاغل، تساءلت: أية مشاغل؟ تعذبني أمور كثيرة، مقتل والـــدي هـــو آخـــر العذابات، لو أكملت تعليمك لوجدت عندك بعـــض الحلـــول، لعذابات خالدة خلود الأهرام، هو موت الحاج مش مشـــاغل؟ قالت وهي تنظر إليَّ: نبقى متفقين مع بعض، ثم مبتسمة: ما فيش خلاف، جلست. أفصحي عما تريدين، أخذت من والدي قدرته على المساومة. كان يترك الضحية تستوي على نـــار هادئة، أود أن أرث منه فحولته الجسدية، كل منا يطلب مـــا يناسبه، يا عيشة لازم نحدد موقفنا، اقتربنا من منطقة الخطر، لازم نأخذ بثأر المرحوم. لا بد وأن تذهب كل دعوات السلام هباء، ولكن أي سلام. لا شيء غير القوة. والقـــوة وحـــدها، نفسي مبطنة بالخوف، لازم نعرف مين القاتل الأول. قالـــت بحدة: المهم نتفق على مبدأ، عدم إكمال تعليمك جريمة فـــي حق هذا العصر. أي مبدأ؟ إحنا لا بد وأن نأخذ بتاره. قلـــت

لها: والحكومة بتعمل إيه؟ انتفضت واقفة في غضب، ابتسمت لها ابتسامة المهزوم، نظرت إليَّ شامخة، من الحكومة؟ حددها؟ قلت بفرح طفولي: العمدة. وزارة الداخلية. وزارة العدل، العدل أمنية المطحونين على الأرض وهي تتساوى في استحالتها مع الحياة على سطح القمر، أو الحصول على فيفي ولو لليلة واحدة، اللي يروح للحكومة يبقى جبان حاتقيد ضد العفريت، ضد مجهول. رانت فترة صمت قالت بعدها: شوف يا حامد، قدامك حل من اثنين: يا تطلع علشان تأخذ تاره، يا إما أنا اللي حا أعمل كدا. قال لي أستاذي وهو يودعني كن على الحياد، لا تتورط في أي شيء يعوق حياتك. المستقبل أمامك فسيح، لا بد من الصدام مع العفريت. قالت عيشة: بس فيه حاجة. لازم أموتك الأول.

المرة الأولى منذ أعوام مضت أسير في هذا الطريق، أمامي الكثير حتى أبلغ مكان الساقية، لا بد من قتل العفريت، في المدرسة قالوا لنا هذه خرافات، قدم العلم حلولاً لكل شيء إلا هذه العفاريت لو لم يظهر قاتل لوالدي، لكان العفريت هو الفاعل، الصدام مع العفريت أمر يبعث على

الرعب، ماذا أفعل، قال الأستاذ، قالت عيشة، قلت أنا، قال العفريت، أمر العفريت نافذ على الجميع.

* * *

لم تأخذ الثورة منه قيراطًا واحدًا، كان رجلاً ذكيًا، وزع الأرض علينا باسمي وباسم عايشة والحاجة طمان واسمه هو توزيعًا على الورق فقط، أنا نفسي لا أعرف لأرضه حدودًا، بلدتنا ملكه، تحايل على كل الناس، كان رجلاً. ولا كل الرجال.

* * *

الطريق يئن تحت أقدام المارة عقب يوم من الكدح والعمل. سحابة بيضاء على شكل بطة سمينة تعبر السماء فوقنا في تثاقل جميل. كفاية على كدا يا حامد، أنصت بمرارة، حصلت على الإعدادية هذا العام، لم أرد. عندك كل حاجة هنا. لازمته إيه التعليم. ضحكت في نفسي من هذا المنطق. سأحصل على شهادة عليا. وبعد كدا تعمل إيه. ألا تعرف؟ أعمل، يرموك في الصعيد علشان عشرين أهيف. أنت لا تدرك أي شيء عن مجتمع الكفاية والعدل. لا قيمة للأرض ولا للمال. الخاتم الذهبي الذي في إصبعك دليل

جهلك: يا حامد أنا مستعد أديك خمسين جنيه في الشهر، العمل في حد ذاته شيء جميل. ضحك الرجل في فحولة: فكر في مشروع. الفلوس موجودة من جنيه لألف. ضحك مني. قالوا لنا في اتحاد الطلاب: العمل شرف، العمل حق، العمل حياة أنت تدوس هذه الأحلام بكل ضراوة، أنت تحطمني يا والدي. الوظيفة للي مش لاقي يأكل. التعليم شيء جميل يا أبي. لا تعرف قيمة العلم. لازمته إيه وجع الدماغ هو بوظها غير المتعلمين، سنقيم الدولة العصرية بأحدث منجزات العلم والتكنولوجيا، قالها بفخر، انطلقت الأكف تصفق، الحناجر تهتف. دارت بي الأرض. انقطعت أحبالي الصوتية من كثرة الهتاف، قال: علم. قال آخر: هو بوظها غير العلم. رد مرمطون الجلسة: علم هذا عند ربي. تمايلت الرؤوس من شدة الضحك، أمعنوا في الصياح، لو قلتلهم عن أحلام المستقبل لضحكوا مني حتى قيام الساعة. ربما كان عندهم سر الكون. حامد. من بكرة أنت من الأعيان. أنهي الموقف بهذا الحسم. يكتب تحت اسمك عادة رأسمالية وطنية. أية سخرية تلك. أعضاء الاتحاد الاشتراكي يعملون لك ألف حساب، العمدة أنت الذي وليته، شيخ الغفر يدعو لك أو عليك

ليل نهار، تلك هي مملكتك يا أبي. لا بد وأن أكمل تعليمـــي. أره الزواج وإن كنت أحن إليه منذ الطفولة التعسة. كرهــت أعواد الذرة العالية وما يحدث تحت ستارها، كرهت الحيـــاة، المهم أن أكمل تعليمي، أن أذهب إلى دمنهور.

* * *

والحياة هي تجربة كل منا مـــع الفشـــل والإحبـــاط، عندما دفنوا والدي أدركت أنه لا شيء له قيمة، بمجـــرد أن ودعت القبر عرفت أن الحياة أكذوبـــة كبـــرى. عارضـــت عيشة، دفنوه غصب عنها، حملوها بعيدًا. عندما أقبل الطبيب الشرعي كادت أن تمزق وجهه بأظافرها. مانعت الجفن، بعد الدفن قررت ألا تقام ليلة المأتم لن تتلقى العزاء إلا بعـــد أن يقتل القاتل، في كل صباح جديد يستحق الإنســـان أن يتلقـــى العزاء قبل أن يبدأ يومه، الحياة تتسرب منا دون أن نـــدري. ليس الموت هو المأساة الوحيدة في حياتنا يـــا عيشـــة، قتـــل القاتل هو المبرر الوحيد في نظر عيشة كي تستطيع مواصلة الحياة بعد ذلك. حقيقة لم أكن أدرك كل هذه الأمور من قبل.

* * *

أمتى الزمان يسمح يا جميل؟.. صوت سكينة: كنت عائدًا إلى المنزل بعد منتصف الليل، كانت جالسة أمام منزلها تدخن سيجارة غليظة، أين يكون القمر قبل شروقه؟ قالت بصوت متقطع: بيكون راكب على الشمس. ضحكنا معًا ضحكة مبتورة صفراء، صمتنا معًا، كبرت، لماذا يكبر الناس ويتقدم بهم العمر؟ ترى كيف كان جمالك وأنت في العشرين؟ من هو أول رجل قدر له مضاجعتك؟ أنه أكثر خلودًا من كولومبس، طيب وفي الليالي اللي ما بيطلعش فيها خالص، ضحكت قبل أن أجيب: بيكونوا في حالة انسجام، وصال، تنهدت، جلست إلى جارها، تعطيني الأمان لمدة قصيرة. الحيرة تقذف بي بعد ذلك إلى بحار ليس لها شاطئ آخر، هزمت في معركة ضارية، قالت: اللا ليه يا حامد؟ أنصت إليها. أكثر التجارب عمقًا هي تجارب البغي والمجرم والمجنون وربما تاجر المخدرات، الليل بيجي بعد النهار؟ قلت في نفسي، الليل يأتي الأول دائمًا. يسقط ظلامه، يلف صمته كل شيء، قالت وكأنها في عالم آخر طيب ليه الليل بيجي الأول؟! احترت، كفاني حيرة يا سكينة، لم أحضر إليك كي تقذفي بي إلى حيرة جديدة. هيا إلى الداخل، نرتشف معًا

من عرق جسدينا، عرق لزج له رائحة قذرة. هيا كي تحتك منا الأجساد ونحن في غيبوبة أود أن تدوم إلى الأبد. حامد، لم أرد عليها، كنت ألهث، ليه ما اتجوزتش، واصلت الصمت، الصمت قوقعة تحمي الضائعين أمثالي، أمثالي أنجبوا أولادًا. لو شك أهل البلدة في قدرتي الجنسية لأعلنت علاقتي بك على رؤوس الأشهاد. إن كذبت، لن تقول حبات العرق إلا الصدق. لسه بدري، أنا ما زلت صغيرًا، قالت في ألم، هو الموت له صغير وللا كبير، أصبحت أخافك في الأيام الأخيرة. التصقت بها. لا أمان عندك بعد اليوم. لو حضرت معي إلى دمنهور لكسبت أكثر مما تصورين، من يدري قد يعقدون لك الزعامة هناك، أنا عجبتك الليلة. ضحكت. ضحكنا معًا، استلقت على ظهرها وهي تضحك. قال أحدهم نحن نضحك لكي لا نبكي. أشعلت سيجارة وهي تضحك تركتها، كانت عارية، وهي غارقة في بحر من الدموع والضحكات. خرجت.

* * *

قبضوا على حسن الأعرج وزهران، ذهبوا بهما إلى السجن كان من الواجب أن أزور حسن الأعرج هناك، عنده

السر، كرهته بمجرد أن عرفت أنه أخ غير شـــرعي لـــي. حبيبتي فيفي. رجوت الضابط أن يظل هذا الموضوع ســـرًا، بعد التحية. ما دمت منا يا حسن لم تخفي السر علينا؟ عندما ستعود سأطلب منك بحكم الإخوة أن تعاونني في أخذ الثـــأر لوالدي، أقصد والدنا المقتول، ألقيت له بعض النقود، عدت، أحبك يا فيفي، أخافك يا عيشة، حسن صامت كأبي الهـــول، الصمت لا يمكن أن يكون من ذهب. تلك أكذوبة تضاف إلى رصيد الأكاذيب، حتى أنت يا حسن بـــدأت تظهـــر عليـــك علامات الفكر، مرحى يا أخي. كان من المفروض أن تذهب إلى المدرسة، ألم تعلمي يا فيفي. أحبك.

* * *

ــ فيفي.

ــ.......

ــ أنا بحبك.

ــ...

ــ أهو الدلال دا.. دليل اهتمام.

استدارت إليَّ. كم هي جميلة، تحمليني يا فيفي. فلاح نازح من أعماق الريف. حاول أن يتظرف، عايز إيه؟ كـــان

الجو جميلاً. بدت لي الحياة محتملة إلى أقصى حد، ردت عليَّ أخيرًا، وضعت قدمي على أول الطريق. بين أعواد الذرة في بلدتنا حصلت على الكثيرات، كن يدرن الوجوه إلى الناحية الأخرى من فرط الخجل. عايزك؟ بدت لي الحياة كأغنية جميلة والشارع كطريق سهل بلا تعاريج أو مطبات. يا سلام، كدا على طول؟ سأكمل حديثي.. مأساتي يا فيفي. ويجب أن نتصارح منذ البداية أنني أحلم أكثر مما أعيش. معذرة ربما بدوت غير مفهوم لكن أشرف الأمور أن نقوم معًا برحلة مزدوجة إلى أعماق الذات. أشوفك فين؟ قالت وهي تداري ابتسامتها: أتفضل في البيت. ظهرت على وجهي علامات الانكسار، لازم يكون والدك معاك، والدي لن يزوجني إلا إذا كان الزواج نقلة إلى الأمام، قبل بحثه عن فتاة تناسبه لا بد وأن تكون قطعة الأرض وكمية المال أكثر مناسبة لظروفه، ثم أنني لا أطلب الزواج يا فيفي. أحبك يا فيفي. صدقيني حبنا الأول يكون أصدق حب، الزواج رباط رهيب أخافه. لم أكمل تعليمي بعد. عرض والدي الزواج عليَّ في العام الماضي، رفضت، لو قلت له أني أحب فتاة من البندر لنفاني من الضهرية إلى الأبد، كما تفعل الحكومات

المحافظة مع الخارجين على القانون. بونيسوار، قلت في نفسي وأنا أمتثل كميات العجز والحزن التي تفصل بيني وبينها: أسعد الله مساءك.

* * *

أوعى يا حامد تسمع كلام البنت العبيطة دي. كانت أمي. كبرت في الأيام الأخيرة سنوات من العمر، ماذا تقصدين؟ حكاية التار دي. قلت بعناد من يعلم كل شيء يحاول أن يتغابى: رأيك إيه يا أمي؟ لا أحد له رأي حتى سيدي الشيخ مسعود نفسه، رأيي أن فيه حكومة، وعيشة مصممة على الأخذ بالتار، أنا ما ليش دخل بالبنت دي. قالت لي بعد فترة صمت: حامد، أنت راجل البيت الكلمة كلمتك، ماذا سيقول الناس عنا؟ بلا ناس بلا غيره، الصمت الثقيل الصمت المشحون، يا حامد أنت اللي فاضل لنا تسيب المدرسة وتيجي هنا، الله يرحم أبوك بقى، يبدو أن العذاب أبدي كالموت، والتار؟ أتت الكلمات مشروخة ملتاعة، إذا كان لا بد يبقى زهران، عار علينا أن يحدث هذا، دعيني أخرج، ربما وجدت هناك وفوق دوار الساقية مخرجًا من كل شيء، لا خبرة لي بمثل هذه الأمور ولكني ذاهب.

* * *

تزوجت فيفي فمرحى يا ليالي الشقاء.

السرير، الشقة الخالية، مبلغ كبير من المال، مؤخر صداق وقدره، أكثر بقاءً وخلودًا من عواطف البشر، لم أرها منذ عقد قرانها، رنين النقود أكثر تأثيرًا في النفوس من خفقات قلوبنا البكر، دعوا القمر وشأنه، حلوا لي هذه العذابات الصغيرة يا من جعلتم من التهريج علمًا له أصوله وقواعده وأبطاله على مر التاريخ، تركت في نفسي جرحًا لن يندمل، يهون كل شيء بعدك يا فيفي، أنا السبب في كل هذا، لم تكن عندي القدرة على اتخاذ قرار ما، سأقضي بقية سنين العمر القادمة أضاجع حزني من بعدك. مستعد أن أتنازل عن كل ما حصلت عليه في الحياة ــ وهو قليل ــ لقاء أن يعود قلبي بكرًا مرة أخرى، لن يندمل الجرح، ليلة عرسها، المدينة تستسلم لليل طويل مقبل، البيوت تقف حدادًا على شيء فقد، في اللحظة التي كانت تستسلم فيها للرجل الآخر، اشهدوا يا أهل دمنهور، يا سكان شارع زويل، فيفي في أحضان رجل آخر، هنا إنسان يلعق جراحه بمفرده، فيفي تبيعه الحب وتسوي معه الغرام على نار هادئة. إنسان يعايش أحزانه

بمفرده، فقدت بكارتها، البيوت في حداد دائم، الرياح تعوي، ثرثرة المارة تأتي إليَّ كأنها مرثية حزن في مأتم قد يطول إلى الأبد، تصبحون على خير، فيفي راضية بكل ما حدث، وأنت من أهل الخير، ربما لم تكن تحبني، أسعد الله مساءكم، كل شيء مزيف، حديث النفس لا يورث سوى الجنون، الحزن قضى على كل شيء، فيفي تهمس له، أحبك، يقول لها، هذه ليلة مجاملات بالطبع، على خير تصبحون.

* * *

أفرجوا عن حسن الأعرج وزهران. دخل حسن حجرته المظلمة، قالت لي سكينة إنه طلبها على سنة الله ورسوله ولكنها رفضت، حسن صامت، يأكل عيشة بنظراته، ينظر إليَّ على أنني حققت كل ما أطلب، بعد أن تزوجت فيفي لن يكون للسعادة طعم ما. حاولت أن أكلم حسن، أشاح بوجهه، لو كان هناك سر ما لن يقوله إلا لعيشة. إياك يا حسن من هذه التطلعات الطبقية. أنت شقيق عيشة، لم تحمل السر بمفردك؟ أنت لم تخلق لمثل هذه الهموم، ضاعت البسمة والبهجة من حياتك. بل من حياة بلدتنا كلها، حتى زهران حضر إلى منزلنا وأنا غير موجود. عيشة غاضبة. إنها

تطلب مني أن أتخذ موقفًا من هذا المجرم القذر، هكذا وصفته، لا بد وأن بينكما سرًا ما، فجعت في فتحي. فجعت أنا في فيفي، آه لو تدرين كيف فجع هو، الفجيعة هي التي تعطي الحياة طعمها الخاص، كنت أنت يا عيشة الأمل الوحيد لفتحي، بدمنهور حولته إلى شخص آخر، سأؤدب زهران وفتحي وكل أهالي الضهرية أمهليني. اقترب الآن من الساقية، الغفير محمود مصطفى البرادعي ذهب إلى ضابط النقطة، قال، إن عنده أقوالاً مهمة في التحقيق. قد تكون الطريق إلى معرفة الفاعل، قالوا: إن زهران قد ذهب إلى الساقية، قال بعضهم: إنه ذهب إلى هناك بناء على اتفاق مع عيشة، قالت سكينة: إن رأس العفريت هي مهر عيشة، جزاك الله كل خير يا محمود، كنت معي، لم تقل لي أي شيء، أتوقف، لي في هذا المكان أجمل الذكريات، ليل الريف له طعم خاص، ظلمته لها لون معين، صمت أقرب إلى السكون الأبدي الذي لا حياة بعده، أصوات الضفادع، نباح كلب، صوت ساقية تدور، السعال المشروخ، عواء ذئب، طلقة نارية، أصوات تؤنس وحشة السائرين وحدهم في جوف الليل، عما قريب ستلد فيفي، على هذه الساقية، قيدت

وفاته ضد مجهول، يقولون أن والدي هو القاتل، أقصد هـو الذي تسبب في قتله، من أعماق الحق تشممت رائحة الماضي بكل أحزانه، تساءلت في ضيق وخوف، لم يتقدم بنا العمـر، الليل خيمة من العتمة، زهران عند الساقية، الليل رداء سميك لونه أسود، لا بد وأن في حياة زهران أكثر من فيفي، الليـل كتل من الصمت، سأضع حزني على حزنك يا زهران ونقيم عند الساقية تلاً من الأحزان، فيفي حامل، نخلتنـا أصـبحت عاقرًا، العقم، زهران عند الساقية، العتمة، الصمت، الليـل، فيفي، أسير نحو الساقية، قد ازدهر الخوف بـداخلي، لـولا إلحاح عيشة لما قدمت إلى هنا، لا حيلة لـي فـي ذلـك، لا أعرف كيف سألتقي بالعفريت، لم أكن أؤمن بمثل هذه الأمور هذا لا يمنع وجودها، لا بد وأن نؤمن بوجودها قدر إيماننـا بالحياة نفسها، ما تطلبه عيشة مستحيل، هي صعبة المراس، الجريمة الوحيدة التي اقترفها والدي ـ يرحمـه الله ـ أنـه منعها من إكمال تعليمها، أنا شخصيًا أهابها، أمي تتحاشـاها منذ أن قتل والدي. بكت أمي، منعتها حتى من البكاء، قالـت إن الحداد والأحزان يبدآن عقب أن نأخذ بالثأر، لم أكن أقصد هذا يا فيفي صدقيني، سنقيم له مأتمًا كبيرًا، ثلاث ليال كاملة،

لن أصدق أحدًا بعد ذلك، ولم يا فيفي، سنتقبل العزاء من كل الناس، شكر الله سعيكم جميعًا، العزاء مقتصر على تشييع الجنازة، كان هذا بقرار منها، احترت في أمرك يا عيشة.

* * *

قتل حسن الأعرج، مضى وهو يعرف السر، من قبله قتل والدي وهو وحده الذي يعرف سر حسن منصور أبو الليل، أحضروه إلى منزلنا ذات صباح حزين، بكت شمسه دمًا أحمر، قرر أن يبقيه في منزلنا، لم يجرؤ أحد على سؤاله، وإن كانت التساؤلات المرة قد انتشرت في كل بيت، أمران مقدسان هنا في بلدتنا مواعيد الصلاة وهي عمل نقوم به بحكم العادة، والشائعات وهي نوع من التمرد غير المقصود، أو محاولة للخروج على المألوف من أمور الحياة، قيل عن حسن الكثير، وجود والدي كان صمام أمان بالنسبة لحسن، عليَّ أن أحميك من الآن، مات المرحوم وهو يحمل سرك، لم يقل سرك، لم يقل لي أي شيء. غداة أن خرج حسن من السجن قرر أن يبقى نهائيًا في الحجرة المظلمة، لم أحاول الذهاب إليه، فسرت التحول الذي أصابه على أنه حزن على المرحوم، أنت وفي يا حسن. الذين سيوزعون

التركة علينا عما قريب سيجعلون لك نصيبًا فـــي الميـــراث، ولهذا الوفاء نصيب آخر، الحاج منصور أبو الليل والـــدك، أنت نزوة ليلة سوداء، هل قام الحاج منصور بكل شـــيء؟ أم أنها كانت جريئة؟ لست أدري. حلت لي المدينة هذه المشكلة، ابتداء من الجنيه فصاعدًا يمكن للإنسان أن يجد حلولاً لتلـــك الرغبة الملحة، بل هناك ما يهبط حتى الحتة بعشـــرة، فـــي النصف الأخير من الليل تحدث الأعاجيب، كان حزن عيشة على حسن الأعرج أكثر من حزنها علـــى والـــدها، عيشـــة صامتة، من المستحيل أن تفضي لي بما عندها، وجدوه على دوار الساقية لسانه مدلى من فمه، عيناه جاحظتـــان، متـــى خرج؟ قالت لي أمي أنها شاهدته بنفسها في حجرة عيشـــة، كان جالسًا بجوارها في خوف، كانا يتحدثان معًـــا بصـــوت منخفض، بعدها خرج، ولم يعد، يحرمك الله يا حسن.

* * *

فيه في الأمر سر. قالها أحدهم وهو يعطي الجـــوزة للجالس إلى جواره. قريتنا أماتها الرعب، قتلها الخوف، هناك خطر يهدد كل فرد منا. تساءل الكل في حيرة ترى على من الدور؟ ولا سر ولا غيره، هوه عفريت الواد عبـــده، لمـــاذا

يموت الناس بهذه الصورة وفي العراء بذلك الشكل؟ رد عليه آخر، يمكن الواد زهران، مين يعرف، نحن نتمسك بالحياة حتى عندما ندنو من الموت، نطل عليه من بعيد. نزداد تمسكًا بالحياة إلى درجة الجنون، كانت الخطيئة الأولى بسبب امرأة، تساءل أحدهم: يا ترى الدور على مين؟ رد عليه آخر بين اليقظة والنوم: الغفير محمود، تعالت ضحكاتهم. استراحت الجوزة التي داخت من كثرة اللف وسطهم والعمدة فين؟ رد أحدهم ضاحكًا: منتظر دوره، تعالت الضحكات مرة أخرى، صمتوا فجأة، قال أحدهم في استظراف، المهم أن الكل يخلص، عايز أفضل أنا والجوزة بحريتنا، قريتنا تلهث من فرط الرعب، أمال الضابط فين؟ سافر مصر، يعمل إيه؟ رد فتحي في ضجر، يستصدر أمرًا بالقبض على العفريت، مرة أخرى تتعالى الضحكات، فرقع بعضهم بأصابعه في الهواء تعبيرًا عن السرور، رمى البعض نفسه على الأرض،صمتوا، مالكم صمتم، أكملوا القصة، ذهب الضابط إلى مصر يستصدر أمرًا بالقبض على العفريت، أحالوا أمره إلى دار الإفتاء لتفيد إن كان هذا صحيحًا من الناحية القانونية، أفادت دار الإفتاء أن القانون المدني لا ينص على

ذلك. لا بد من تعديل. لا يصلح التعديل إلا عن طريق السلطة التي وضعت نفس القانون العفريت من مملكة أخرى، لا بد من احترام العهود والمواثيق، نحن في القرن العشرين، معذرة. حكايتنا حزينة الختام، ذهب الضابط، عاد الضابط، لا جديد في الأمر، بدت الحياة مرهقة متعبة، تسير ببطء يبعث على الملل، قريتنا تنزف أعز ما تملك في يأس، العفريت، قد استولى على أرضنا على الساقية. من سيحاول أن يذهب إلى هناك سيكون نصيبه القتل، نضبت موارد الحياة، أملاك والدي لا تحد، ماذا تظن نفسك يا حضرة العفريت لن أنذرك كما يفعل المتحضرون سأدخل معك، فيما أظن في صراع قد يطول.

* * *

الضحية الثالثة، آخر شخص كان يعرف السر، لم أنجح في الحصول منه على أي شيء، قال لي إنه قال كل شيء لحضرة الضابط، أنت أيضًا عصري يا محمود، تدرك معنى التخصص وقيمته، أنا ابن القتيل الأول، من حقي أن أعرف منك كل شيء، كل ما قلته لحضرة الضابط لم يزده إلا حيرة، حيرة أعمق من بحر الإسكندرية الذي لا يوجد له شاطئ آخر كما يقولون في بلدتنا، كان أملي أن أعرف منه السر، مات في اليوم التالي، مات بنفس الطريقة على دوار الساقية، لا بد وأن الدموع قد نفذت منك يا شجرة الدموع، تحقيق جديد، متاعب جديدة، كل شخص في بلدتنا يعتقد أن الدور عليه، حمل الضابط أوراقه وعذاباته وحيرته وفشله ومضى، الطريق صعب، بدأت أشك في حكاية العفريت، نحن لا ندرك قيمة الحياة إلا عندما نصطدم بالموت، عينان جاحظتان، لسان مدلى، بطن منتفخ، جسد متصلب، رائحة عفنة تهب مع الرياح، عندئذ نرتد إلى الحياة، ندرك قيمتها، مع أننا واهمون في كل ذلك، لو شاهدتم تلك الحفرة المظلمة، القذرة، والتي تمتلئ بالمياه أيام الفيضان عن طريق النشع لبصقتم على الحياة، فالشيء المؤكد أنها لا تستحق كل هذا،

التقيت بحضرة الضابط، لا بد وأنه مر عليه عام كامل لم ينم فيه، قلت له: إلا إيه السر؟ شيء محير. الحيـــرة تعنـــي أن يدور الإنسان في حلقة مفرغة، هل تصدق حكاية العفريـــت هذه؟ قال بدهشة: الغريب أن حسن ــ يرحمـــه الله ــ وهـــو الشاهد الوحيد أقسم على حكاية العفريت، في لحظة واحـــدة، يموت الإنسان، يغمض عينيه، لا يفتحهما بعد ذلك أبدًا، يقال عنه المرحوم، ما قيمة كل شيء؟ لا بـــد وأن فـــي حكايـــة العفريت شيئًا من الصدق، لا، لا يوجد شيء اسمه العفريت، العفريت وهم نقوم بعمله بأنفسنا، وبعد هذا نخاف منه، سكت في حيرة، ما هو تفسيرك للموضوع؟ أن الذي قتـــل حســـن الأعرج ومحمود البرادعي هو خوفهم الداخلي، الوهم الكبير، والحاج منصور، من الذي قتله؟ هيه، صمت،لم يرد، هنيئًـــا لك أيها العفريت، أصبحت كل شيء في بلـــدتنا الصـــغيرة، الأمهات تخيف الصغار بك، الضـــعاف يهـــددون الأقويـــاء بوجودك على بعد أمتار من القرية، الذين بهم شـــماتة مـــن بعضهم البعض يعايرون أنفسهم بوجودك، قاطعته، ما كانش بيخاف من أي حد، قال في حسرة: مات حسن وهو الوحيـــد اللي كان يعرف، حاولت معاه المستحيل، حتى سكينة، حتـــى

الذين رشحوا أنفسهم في الانتخابات أجمعوا جميعًا رغم كـــل خلافاتهم على أن القضاء النهائي عليك هو أهم شيء مقدس، شيء محير يا أفندم، لا تضحك يا عفريت، الـــذين افتتحـــوا النادي الصيفي في بلدتنا الصغيرة، أقسموا أنهـــم يمارســـون الرياضة لأن العقل السليم في الجسم السليم، عليك أن تفهـــم الباقي. ألم أقل لك؟ صرت كل شيء عندنا، صمت الضباط، تركته دون كلمة وداع، لو لم العفريت، فمن يكون سواه؟ ليلة مقمرة، وإن كان الشتاء لا أمان له. أنا فـــي الطريـــق إلـــى الساقية، سأحاول أن أقتل خوفي. زهران سبقني إلى الساقية، لن أعود إلا بالأمان لبلدتي، لن أستعين بالله على العفريـــت، سأستعين بالله على خوفي، هذا هو الأهم أما البـــاقي فـــأمره بسيط.

* * *

الدنيا ليل، الليل يبكي سوادًا كثيفًا في حزن صامت، بدا منزلنا مرهقًا ضائعًا وسط العتمة، خيل إليَّ أن جـــدران منزلنا قد انشرخت، فحزنت، حملوا جثته وساروا في جوف الظلام، مسكين يا والدي، الضوء المنبعـــث مـــن الكلوبـــات اختلط بضوء القمر الشاحب ليؤلفا معًا شيئًا حزينًا، لا حـــول

ولا قوة إلا بالله، الكل في حالة ذهول، قتل الحاج منصور أبو الليل، إنا لله وإنا إليه راجعون، ما زلت أذكر قسمات وجهه، رغم أنني كنت بعيدًا عنه، غربة قاسية على النفس، الغربة تعني أن يعيش الإنسان في قوقعة ذاته، رحمة الله عليك يا والدي، قال لي: أنت فاكر نفسك خلاص بقيت راجل، قلت في خوف: حصل إيه؟ قدمت في المدرسة، لم يكن هناك اتفاق على أن أكمل تعليمي، ولكني فعلتها، سادت لحظة صمت، راح يتفرس في وجهي، قليلاً ما نتحدث معًا، نحن نعيش كالغرباء، ترتفع إلى مستوى الصداقة والإخوة، اسمع، انتبهت إليه، سيلقي بمزيد من التعليمات، ما فيش تعليم، ما فيش دمنهور، هو قادر على تنفيذ هذا القرار، دا حق من حقوقي، تعالت ضحكاته، ندماء جلسته يضحكون، ضحك بحكم العادة، حق إيه؟ تعالت الضحكات مرة أخرى. اسمع يا أستاذ حامد. توقفت الضحكات. ماذا تفعل بكل هؤلاء يا أبي؟ هل سيكون لي في يوم من الأيام مثل هذه البطانة المخلصة؟ لا أعتقد في الإخلاص. القلوب علمها عند ربي. حق من حقوقك؟ أنا كان نفسي أشوف دا منك من زمان. لحظة صمت، مصمصة شفاه. النار لا تخلف بعدها إلا الرماد.

حكمته، أحوال الدنيا لا تبعث إلا على البكاء، أتت كلمته لتوقف كلا عند حده ما فيكش خشونة الرجال يا حامد، قال أحدهم: هوه عاد في الزمان ده رجالة. زمن لا ينجب إلا العقم، زمنكم أكثر عقمًا. لم تتركوا لنا سوى الذكريات الخاوية. قالتها لي قوادة من أبي الريش عندما سمعت صراخ فتاة بكر، حتى الآن لا أدري لم قالت ذلك. هل تقصد أنني لست رجلاً يا أبي؟ قال والدي بحزن: مش عارف يا حامد. قال أحد المنافقين، الحاج منصور. بيظهر، كان والدي ساهمًا كأنه يبحث عن شيء مستحيل. باين عليك مترببي يا حامد. العلم ما لوش قيمة هنا يا حامد. الصفات الكويسة اللي فيك ما عادتش تنفع اليومين دول، كل ما فعلته مع الفتاة كان بحثًا عن هذه القضية، كنت أحاول أن أثبت لنفسي قبلها أنني رجل حقيقي. عندما سمعت هذه الكلمة من القوادة اعتقدت أن رنين النقود أصدق وأحلى الأمور في هذا العصر. ألا كمل والدي حديثه بعد لحظة، الحياة صعبة قوي يا حامد، أحببته وكرهته في لحظة واحدة، لست أدري لم! هذا ما حدث، أحسست أنني أحبه لدرجة العبادة، وأكرهه في نفس الوقت لدرجة الرغبة في القضاء عليه، كانت كلماته قاسية، حطمت نفسي، لا بد

وأن أجرب سكينة بمجرد عودتي إلى الضهرية، ربما وجدت عندها حلاً ما..

* * *

ــ مساء الخير يا فيفي.

لم ترد عليَّ، تنهدت، مسحتني بنظرة احتقار، بالطور والعرض، حتى أن يا فيفي أخاف نظراتك، أنا السبب فيما حدث يا فيفي ما حدث قد حدث، لا بد من تسوية الأمور، قالت بكلمات باكية: تحت أمرك أمور إيه، قلت إيه، قلت وأنا أتصنع الابتسام في حزن: فيه طبعًا أمور، قاطعتني: حدد كلامك يا أستاذ حامد، قلت كمن يقوم بآخر المحاولات: حبنا يا فيفي مهما كانت النتيجة، حاولت أن تقاطعني: صحت: أنت الحب الأول والأخير، هدأت ثورتها. استراحت نفسي، لماذا كان الحب ما دام هناك العجز والحرمان؟ أكمل، ابتلعت ريقي: أصل أنا. قالت بنفس الصرامة: ممكن أتكلم أنا، بحثت فيها عن لحظة عطف واحدة، عن نظرة حب، بحثت عن الشوق القديم، مات قبل أن يولد، أنصت إليها: إيه العمل اللي قمت بيه علشان الحب الأول والأخير، لم أرد، عادت نظرات الاحتقار، هربت، هربت مني، تخليت عني، صدمتني في

أعز حاجة عرفتها يا حامد، خليتني كفرت حتـــى بـــالوجود، استدارت، ابتعدت، حضرت لي ذات مساء، قالت:إن هنـــاك من تقدم لها، لم أزل طالبًا، قالت: إن مجرد ظهـــوري فـــي الجو يعطيها القدرة على اتخاذ موقف من أهلها. ظروفي غير مناسبة يا فيفي، حتى أنت، هناك مشاكل لا بد مـــن حلهـــا، هرولت، تركتني، ظلمتني، الظلم مليارات مكعبة تملأ هـــذا العالم. لم تدركي يا فيفي أن هناك تلاً من التقاليد تحول دون سعادة الإنسان في بلدتنا، لو أردت الزواج منك لبدأت الحرب منذ أعوام مضت، الحاج منصور أبو الليل، رجل رهيب، أنا أخافه. على فكرة بلدتنا كلها لا توجد فيهـــا واحـــدة تحمـــل اسمك، يترجمون اسمك عندنا بفوقية. لا يطلق إلا على أولاد الذوات، أكره الزواج، الزواج قيد، ولكني مستعد للارتبـــاط بك، ساكت ليه؟ فشلت في كل شيء، اتكلم يا حامـــد. مـــاذا سأقول لك يا فيفي؟ كان ليا فيك أمل، في العالم كميات مـــن العجز والعذاب قدر لي أن أغوص فيها بمفردي إلى الأبـــد، بذمتك أنت بتحترم نفسك، شعرت أني أغوص إلى الأعماق، أتهاوى. لا أشعر بهذا الاحترام الذي تتحدثين عنه، رحمـــاك بي، ضاعت فيفي إلى الأبد. تزوجت رجلاً قالت عنـــه إنـــه

رجل حقيقي، والحب يا فيفي، قصتنا الخالدة، أنت أيضًا ــ يا أعز من عرفت ــ وجهت إلى رجولتي طعنة حادة.

* * *

لا بد أن أواجهك يا عيشة، قررت إيه يا حامد، نظرت إليها: أنت أيضًا تشكين في. فزعت عندما أدركت مأساة محمود وأولاده، لم يترك لهم شيئًا. أمام زوجته طريق مظلم، قد تقودها سكينة إلى بر الأمان. قد تضن عليها بهذه الخدمة فهي تبدو أكثر جمالاً وأنضر شبابًا منها، موضوع المرحوم، عندما قتل محمود البرادعي، ذرفت أحزانها قبل الدموع، كوم اللحم الذي تركه لها، القاتل لا يقيم وزنًا لمثل هذه الأمور، أمنيتي أن تدمع عيناك مرة واحدة، لم تجد الدموع طريقها إليك إلا ليلة أن قتل حسن الأعرج، كانت الرغبة في الانتقام أهم لديك من أي شيء آخر، يا عيشة عايزين نعرف مين القاتل الأول، ابتسمت نصف ابتسامة، فعلاً لازم نعرف، قلت: البوليس بيحقق، بمجرد ما نعرف القاتل، قالت: إحنا اللي ها نعرف. كيف؟ حا نروح عند الساقية، هناك لا بد حا نعرف السر، بعد كدا ننتقم للمرحوم، أمنيتي أن أفعل هذا ولكن، تعرف يا حامد، أنصت إليها، لو

الأمور تقف عن الأرض والساقية يبقى كويس، تتحدث بكل بساطة، نحن لا نعرف حدود أرضنا، أعمال والدي التجارية تركت دون حساب واضح، لم أصل إلى شيء في تعليمي، بعد كدا التهديد حا يوصل لغاية هنا، ليا أنا وأمي، لازم نقف في وشه وهوه لسه هناك، لا بد من عمل شيء ما، قلت هذا وأنا خائف، بدا لي حديث عيشة معقولاً، خلاص يا عيشة، قالت بفرح بدا غريبًا وسط هالات السواد والحزن: كنت الأمل دلوقت يبقى الحاج منصور ما متش، لسه عايش فيك يا حامد.

* * *

أخذت منها البندقية، نادت عليَّ أمي عندما تحركت، خبطت صدرها، صاحت، يا ولدي، اندفعت نحوي، كي تمنعني من الذهاب، كبدي، كانت عيشة سعيدة، أخذت منها البندقية وأنا أشفق على نفسي من التجربة. لا مفر من ذلك، تمنيت أن تصل أمي إليَّ، حتى أعود معها وأستريح من هذا العذاب، عيشة كانت لنا بالمرصاد، أغلقت الباب عليها، كادت أمي أن تحطم الباب، لم يعد أمامي إلا أن أكمل السير، حملت بندقيتي، وذخيرتي، وخوفي، سرت في الطريق إلى

الساقية، أماتني الخوف، تنفست الحزن، الليل الرمادي كرداء سميك، الضهرية وقد لفها أسى حزين، قتل الحاج منصـــور أبو الليل، تزوجت فيفي، عيشة مصرة على الأخـــذ بالثـــأر، تركتني أمي أحضر إلى الساقية، أزهـــر الخـــوف بـــداخلي، الذخيرة عاقر، لن تفعل شيئًا لن ينطلق من ماسورة البندقيـــة سوى الأوهام، الوهم هنا كثير، كثير، نقيق الضفادع، الظلام اللزج، صوت الصراصير، عواد ذئب، صوت يقـــول آه يـــا ليل، أنين ساقية تدور، ظلال البيوت في الليل كشواهد القبور الأحلام التي وئدت، سكينة، الليل والنهـــار. عشـــق القمـــر للشمس، أحزان ست الدار، مسكينة، كلنا مساكين ذكرى أبو الليل، قال لي أستاذي، قالت فيفي، سقطت الكلمـــات كجثـــث الموتى، العفريت يهدد كل شيء، عجزت الكلمات، الرعـــب في الضهرية كالمصيبة، مصيبة بلدتنا كبيرة، الموت موجود في كل مكان، البقية في حياتك، أنت رجلنا من بعده، إلا ليـــه يا سي حامد، الليل بيجي الأول. قريتنا اســـمها الضـــهرية، شبراخيت على بعد ١٢ كيلو مترًا، تبعد عن التوفيقية بخمسة كيلو مترات، فوق قريتنا سماء، الساقية ما زالت بعيدة، فـــي السماء رب العباد، عند الساقية خلاصي، قريتنا تنام قبـــل أن

يحل الظلام، الظلام في قريتنا أبدي، لزج، له طعم ورائحة، الحزن يمشي على قدميه في دروب قريتنا، ضاجع نســاءها، عاقر شيوخها، داعب أطفالها، نادم شــبابها، أنــادم نفســي، أحدق في الفراغ، أنا حامد أبو الليل منكفئ على طريق لــن يوصل لشيء ما، صافحت الحزن، ودعني، الساقية تقتــرب، كل شيء ثقيل، حتى ظلام الليل، سأنتظر العفريت، أقتله، لو غاب سأنتظره، التحف العرى، أكل الجوع، أشرب الظمــأ، أعاقر القلق، وأنادم الجنون، ليلتي مثقلة بالأحزان الرماديــة، حبلى بالبرد والرطوبة والأوهام الزرقاء.

* * *

الفارس المرسوم على منزل سكينة يغــازل عيشــة، تضرج وجهها خجلاً، قلت وأنا أتمثل كميات العجز والحزن بيني وبينها: أسعد الله مساءك. أنا قتلك يا عفريــت بلــدنا، رعبي منك قضى على حياتي، الساقية تمد أرضنا بالضــباب والأوهام، شجرة الصفصاف ما زالت تبكي، على جدار جامع سيدي تاج الدين، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنــا، علــى ميضته الداخلية، وإن سألك عبادي عني فإني قريب، سكينة، الإيمان أبعد من بلاد واق الواق، الموت في قريتنا كالوبــاء،

العفريت موجود في كل مكان، ستلد فيفي، ضاجعها زوجهــا ألف مرة ومرة، شاخت سكينة، شاخ كل شيء، حتى الحيــاة نفسها، كل شيء مهدد بالموت حتى حياتي، مواصلة التعلــيم أمل لا أجرؤ على أن أحلم به، عند الساقية يبدأ كل شــيء، دورة جديدة، ويحكى أن، ويقال أن العفريت قادر على كــل شيء، وأنه عفريت عبده، رفضتني ست الدار، يا ندامتي يــا سي حامد، دا عيب، ويلتي، الفارس المرسوم علــى منــزل سكينة يتهددني، حارتنا أضحت مشاعًا لكل الناس، جلســات المصطبة في أول الليل تبدوا كذكرى أيام ولت ولن تعــود لا شيء خالد إلا الموت، أنا حامد، حامد منصور أبو الليل.

* * *

اتخذ العمدة وشيخ الخفر قرارات خطيرة، لا بد وأن تكون الحراسة مشددة حتى نحمي قريتنا، أصدروا تعليماتهم. طلبوا من الغفر، حرسهم الله ورعاهم، بــأن يكونــوا علــى مستوى المسئولية الخطيرة، لن يقترب العفريت من القريــة، لقد أقام لنفسه قرية أخرى هناك، لا يجب علينا أن ننتظــره. يجب أن نتحرك إليه. وإلا امتدت قريته حتى تأخــذ قريتنــا معها، معذرة يا حضرة العمدة أحد الشبان يتطفل عليكم. سمة

أخرى من سمات هذا الزمان الوغد، كن صبورًا، أنت أب لنا نفخر به جميعًا.

قتل العفريت، ليس خالصًا لبلدي.

أضحت قريتنا كاليتيم يبكي أبويه في حزن. الشوارع صامتة، البيوت ثكلى تطلب الأمان، الجدران تنوح. النفــوس قد أصابها عقم مزمن.

قتل العفريت. هو الخلاص الحقيقي لي.

لو ضاعت هذه الفرصة. لضاع مني العمر كله.

لا بد من قتل العفريت.

لا بد من قتله.

لا بد.

١٩٦٧

" تمت "